
بشير الجميّل
و
القضيّة اللبنانيّة

كلمة

هذا الملفّ، كان يجب أن يصدر بمناسبة أداء الرئيس بشير الجميّل اليمين الدستوريّة، في الثالث والعشرين من ايلول ١٩٨٢، إلّا أنّ القدر شاء أن يقضي على أمل لبنان في الرابع عشر من ايلول، وأن تغتال أيدي الإثم والإجرام منقذ الوطن وباني أحلامه، فسقط رمز الشجاعة والبطولة، شهيد القضيّة التي نذر نفسه لأجلها.

فوفاءً للشهيد الرئيس بشير الجميّل،

وتخليداً لذكراه وللقضيّة اللبنانيّة،

نقدّم هذا الملفّ، لتبقى « سيرة بشير الجميّل » في بيت وضمير كلّ لبنانيّ أمثولة حيّة للتضحية والجهاد حتى الاستشهاد، من أجل أن يحيا لبنان.



إعداد
دار الأبجدية للصحافة والطباعة والنشر - مركز الإعلام والتوثيق

المحتوى :

منشورات دار الابجدية للصحافة والطباعة والنشر - مركز الاعلام والتوثيق
هاتف : ٩٣٣١١١ ـ ٩٠٠٠٢٣ ـ ٩٣٣٦٧٠

حياة بشير الجميّل في سطور

وُلد بشير الجميل في العاشر من تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ في بيروت، وهو الأصغر سنًّا لعائلة مؤلّفة من ستّة أولاد، أربع بنات وشابَّين. مسقط رأسه بكفيا في المتن. والده الشيخ بيار الجميل مؤسّس ورئيس حزب الكتائب.

* أتمّ دراسته الابتدائيّة والتكميليّة في « معهد الآباء اليسوعيّين » ودراسته الثانويّة في « المؤسّسة اللبنانيّة الحديثة »، ونال إجازة الحقوق والعلوم السياسيّة من « جامعة القديس يوسف » في العام ١٩٧١. وعلّم لمدة ثلاثة أعوام مادّة التربية المدنيّة في الصفوف المتوسّطة والثانويّة في « المدرسة اللبنانية الحديثة ».

* في العام ١٩٧٢ سافر الى الولايات المتحدة الأميركية ليُتابع دراسته، فاشترك في مؤتمر عُقد في جامعة « ساوث وسترن ميتوديست » في ولاية « دالاس » في « تكساس »، حول القانون الدولي. وبعد رفضه منحة دراسيّة، عاد الى لبنان في أيلول ١٩٧٢ وشرع بممارسة مهنة المحاماة، الى جانب نشاطه السياسي الذي أصبح في بداية حرب ١٩٧٥ شغله الشاغل. فأقفل مكتب المحاماة في شارع الحمراء وتفرّغ للقضيّة اللبنانيّة.

* في خلال ممارسته لمهنة المحاماة، شارك في مؤتمرات وندوات دوليّة عدّة، تناولت مواضيع قانونيّة وسياسيّة مطروحة في الشرق الأوسط كلّه وأوروبا والولايات المتحدة الأميركيّة.

* في سنة ١٩٧٧ تزوّج من صولانج توتونجي.

* في شباط ١٩٨٠ استشهدت ابنته مايا (١٨ شهراً) في انفجار سيّارة ملغومة.

* بشير الجميّل أب لولدين : يُمنى وُلدت سنة ١٩٨١، ونديم وُلد سنة ١٩٨٢.

* صريح ومباشر في تعامله مع الناس. يتنقّل في الأماكن العامّة من دون مرافقة. يهوى الموسيقى الكلاسيكيّة ومطالعة المؤلّفات التاريخيّة لا سيما التي تبحث في حياة عظماء السياسيّين.

* يتكلّم بطلاقة : العربيّة والفرنسيّة والانكليزيّة. رياضي، حرمته السياسة من مزاولة هواية ألعاب القوى وركوب الدرّاجات.

طفولته

« أنا عفويّ جداً، صريح جداً، حاسم جداً... » هكذا يصف بشير الجميل نفسه.

صغير إخوته الخمسة : ماديس، وكلود، وجاكلين، وأمين، وأرزة (راهبة). وهو الابن « الشقي » في عائلة الجميّل، وولدها « الشيطان ». في المدرسة، وعلى رغم « رزالته »، جميع

أساتذته ومعلّماته كانوا يُحبّونه، أمّا رفاقه في الصف، فأحد منهم لم يكن يتصوّر أنّ بشير الجميّل سيُصبح في أحد أيام العام ١٩٨٢، رئيساً لجمهورية لبنان، مع أنهم كانوا على يقين أنّه سيكون رجلاً ناجحاً في الحياة ويقولون : « كان دائماً ينال ما يُريد، لأنّه، الى جانب قلبه الذهبي، كان ينفعل بشدّة أمام كل ما يُمكن أن يُعرقل حصوله على ما يبغي »...

كيف ؟ يُخبرون أنّه عندما كان أبوه الشيخ بيار يرفض له طلباً، كان بشير الولد « يفشّ خلقه » بتمزيق صور والده المُلصَقَة على جدران بكفيّا، حتى ضَبَطَه أحد الكتائب في أحد الأيّام، ولقّنه درساً، من غير أن يتعرّف عليه، فأجابه بشير عندها : هذا أبي، أنا زعلان منه، وحُرّ بأن أتخاصم مع صوره »!

أمّا اذا كان خصمه « أمّه »، فكان بشير يكتفي بأن يقطع كلّ « مآخذ » (بريز) الكهرباء في البيت !

حياته السياسية

بدأ نشاطه السياسي والحزبي في سنّ مبكرة في داخل صفوف حزب الكتائب. في العام ١٩٦٩ عُيِّن قائداً عسكرياً لفرقة كتائبية مقاتلة، وبعدها أسّس فرقة بكفيا. وفي العام ١٩٧٤ عُيِّن مديراً سياسياً لإقليم الأشرفيّة. وفي ١٣ تموز ١٩٧٦ عُيِّن رئيساً لمجلس الأمن الكتائبي. وفي ٣٠ آب من العام ذاته أصبح رئيساً لمجلس قيادة « القوات اللبنانيّة »، وعضواً في الجبهة اللبنانية عام ١٩٨١.

* دفعه نشاطه في سبيل القضيّة اللبنانيّة الى تحريك الفعاليّات اللبنانيّة في العالم والى لقاءات مع زعماء ومسؤولين عرب وشخصيّات عالميّة عدّة.

* بشير الجميّل، مندفع جريء، إنّه رجل القرار والتنفيذ، وقد اتخذ طوال ممارساته السياسيّة القرارات المناسبة لمعالجة أحداث صعبة، فحافظ على نهج سياسي واضح جمع حوله فريق عمل شاب ديناميكيّ ومتخصّص.

* مدرك وواقعيّ، يرفض بشير الجميّل المساومات وأنصاف الحلول، لكنّه منفتح على الحوار، لا يخشى النقد.

مبادئه

المبادىء التي تُسيِّر نشاط بشير الجميل تُلخَّص في ما يلي :

ــ إيمان لا يتزعزع في بقاء لبنان دولة ديمقراطيّة مستقلّة ذات سيادة، تربطها علاقات متينة بالعالم العربي ودول العالم الحرّ.

ــ إيمان بالتعدديّة الثقافيّة.

ــ إيمان بضرورة التجديد والتخطيط والتكنولوجيا.

ــ حرص على التوازن في القطاعات الاقتصاديّة المختلفة.
ــ تصميم على تحرير المواطن من هواجس العمل والمسكن والتعليم والمرض.
ــ تصميم على استثمار الثروات الطبيعيّة والثقافيّة والحفاظ على دور لبنان الحضاري.

• ثلاثة أحداث طَبَعت حياته السياسيّة : الأوّل عندما واجه اليسار اللبناني من خلال مواقفه في مصلحة الطلّاب في حزب الكتائب اللبنانية، وخصوصاً في نيسان ١٩٦٨ عندما عارض بالقوّة قرار إضراب دُعي إليه تأييداً للنضال الفلسطيني. والثاني، لقاؤه مع الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر في الأوّل من كانون الثاني ١٩٧٠. أمّا الثالث فيوم خُطف من قبل المسلّحين الفلسطينيّين في ٢٥ آذار ١٩٧٠، واحتُجز في معسكر تلّ الزعتر لمدّة ثماني ساعات.

• وتعرّض الشيخ بشير الجميّل لمحاولتي اغتيال، الأولى في ٢٠ آذار ١٩٧٩ والثانية في ٢٣ شباط ١٩٨٠...

في موسوعة « اونيفيرساليس »

في ما يلي ما كتبت عنه موسوعة « اونيفيرساليس » في عددها الإضافي لعام ١٩٨٢، في الصفحة ٢٩٥ :

...« قضى بشير الجميّل على كلّ عصابات الشوارع ووحّد في شكل فعليّ جميع القوى في المنطقة الشرقيّة. وفرض انضباطيّة قاسية، ووضع حدًّا لتجاوزات الميليشيات. وبكلمة واحدة، استطاع أن يجعل السلام والأمن يُخيّمان على المناطق الشرقيّة. هو شاب (٣٥ عاماً) ديناميكيّ، بعيد كلّ البعد عن الايديولوجيّات، يرفض لغة السياسيّين المحترفين التقليديّة، ويستعمل أسلوباً واضحاً ومباشراً، فيُعلن أمام الجميع كلّ ما يقوله اللبنانيّون سرًّا. وقد توصّل الى مركز رئيس على الساحة اللبنانيّة. وبشير الجميل بنى تحركه على مبدأين ثابتين :
ــ على لبنان أن يستعيد استقلاله وسيادته في شكل فعلي،
ــ وعليه أن يضع حدًّا للاحتلال السوري – الفلسطيني المزدوج ».

رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة

انتخب بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية، في الساعة الثانية إلّا عشر دقائق من بعد ظهر يوم الاثنين الواقع فيه ٢٣ آب ١٩٨٢ في « ثكنة الفيّاضيّة »، وذلك في الدورة الثانية وبأكثريّة ٥٧ صوتاً من أصل ٦٢ ووجود ٥ أوراق بيضاء.

• بشير الجميّل من أصغر رؤساء الجمهورية اللبنانيّة سنًّا (٣٥ سنة)، صاحب شخصيّة مميزة، حازم وصلب، يحمل الوعد والأمل لخلاص جميع اللبنانيين وإنقاذ الوطن من حرب مدمّرة دامت ثماني سنوات.



بشير الجميّل في السابعة من عمره

لماذا هذا الملفّ ؟

الفترات المصيريّة من حياة الشعوب هي التي يصعب على المؤرّخ تأريخها، لاختلاف النظرة إليها باختلاف المواقف، ولكون الجوهريّ من حقائقها يُضرَب عليه نطاق من السرّيّة هو ممّا يلازم الأعمال السياسية والعسكرية الكبيرة.

ولكن بما أن الحقيقة في النهاية هي ملك الشعب والتاريخ فلا بد من جلائها لتكون تبصرةً للناس بما مرّ به وطنهم، وليكون السلوك المخلص أثناء تلك المرحلة مثالاً وقدوةً، والسلوك المنافي للوطنية والواجب عبرةً تعتبر بها الأجيال الصاعدة فتتجنّب الوقوع بمثلها.

ومن صلب حقائق تلك الحقب التاريخيّة الأدوار التي مُثّلت خلالها وراوحت ما بين مشرِّفٍ لأصحابه أو مجلببٍ لهم بالخزي والعار. فلا يستوي باذلٌ نفساً وأهلاً وولداً في سبيل وطنه وبائع لهذا الوطن في سوق الخيانة والإتجار بالمقدّسات. فضلاً عن أنّ تركيز

هذه الأدوار في الإطار العام للحقبة المؤرخ لها هو جزء من عمليّة رسم صورة تلك الحقبة وإعطاء فكرة كاملة عنها.

ونحن إذ نقدّم في هذا الملفّ صورة عن الدور الذي لعبه إنسان من لبنان على مسرح الأحداث المصيريَّة التي عصفت بوطنه منذ العام ١٩٧٥، حتى لاحت ملامح الخلاص بانتخابه رئيساً للبلاد مهمّته وضع عجلة المحنة على طريق النهاية، فإنّما نساهم في وضع هذه الأحداث ضمن لوحة صادقة هي المطلوبة في خضمّ الصور المتضاربة، التي يُحاول الكثيرون إعطاءها إمّا لطمس الصورة الحقيقية، قصداً وعمداً، أو تعبيراً عن رؤية في غير محلّها للأمور التي جرت.

وإنّنا لفي غنىً عن الإشارة إلى أن الدور الذي نعرض له هو أبرز الأدوار التي شهدتها الساحة اللبنانية خلال محنة السنوات الثماني، وبالتالي فإنّ استخلاص حقيقته بأمانة يُشكّل، في حدّ ذاته، جانباً كبيراً من مهمّة التأريخ الشامل للفترة.

ونُسارع إلى القول انَّ ما فعله بشير الجميل ساعة دعاه داعي الوطن هو، بكلّ بساطة، ما كان من واجب كلّ مواطن لبنانيّ أن يفعله، وما فعله حقاً جميع الذين التفّوا حول بشير الجميل تحت لواء « القوات اللبنانية » وربحوا للبنان معركة الخلاص التي بدت طلائعها وتباشيرها الآن. لكنّ المواهب القياديّة التي نمَّ عنها القائد الشاب أهّلته للاضطلاع بالمسؤوليَّة الأولى في حقل النضال المسلَّح للدفاع عن لبنان، فإذا هو، باختيار بديهيّ وعفويّ من حزبه ومن المقاتلين الى

جانبه، على رأس هذه القوّات يقودها في مواقع البذل والتضحية ليكون لبنان وحده الكاسب وقاطف الجنى والثمار.

والميزة الفريدة في هذا الشخص أنّه، وقد تحسَّس في أعماقه حقّ وطنه عليه وأقبل على الوفاء بهذا الحقّ، استطاع، وهو القائد، أن يظلّ مقاتلاً عادياً في الوقت ذاته، لأنَّ القيادة في عرفه ليست تقدّماً على الآخرين، بل تدبيراً تنظيمياً من جملة التدابير المعدَّة لبلوغ الهدف، كما أنها عبء ومسؤولية وليست مجالاً للتباهي والجاه.

وشخصيَّة من هذا الطراز الذي لا يوجد في كل آن جديرة بالتوفّر على درسها وإظهار مزاياها، لا خدمةً لها بالذات وقد تلاشت في نفس صاحبها جميع العوامل البشرية لينمو فيها فقط الحسّ الانساني وحسّ الواجب الوطني والاندفاع الى أدائه، ولا خدمةً لرفاقه المقاتلين الذين عايشوه في الخنادق والثكنات، ورافقوه في العمليّات التي كان يقوم بها معهم كواحد منهم سواء بسواء، وافترشوا الى جانبه التراب والأرصفة، وتعرَّضوا معه للحرّ والصقيع، وللقذائف والرصاص فهم أدرى به من نفسه، وهم يحكون عنه ولا ينتظرون أن يحكي لهم عنه أحد، ولا من أجل جيلنا الذي عرفه مشاهداً إيَّاه عن كثب، وتتبَّع خطواته معايناً مواقفه الصامدة ورائياً بأمّ العين جرأته وتضحياته، إنَّما هذه الدراسة أردناها أن تكون شهادة حقّ للتاريخ ولأجيالنا المقبلة، لأنَّ لبنان معرَّض في كل حين إلى أن يُصيبه ما أصابه اليوم، وهو في كل زمان من الأزمنة بحاجة الى « بشير جميل » ينتفض كالمارد في وجه

العاصفة ويجبه الخطر والقوة الغاشمة بشجاعة الحقّ. فإذا لم نعلّم جيلنا الطالع، وما سوف يليه من أجيال، أمثولة بشير الجميل، وإذا لم نطبع في صدور أبنائنا وأحفادنا صورة للبطل الذي يهبّ عند الشدائد والملمّات ليخلق مقاومة العَدوان في وطنه خلقاً ويُسيِّج لبنان بسياج من الأجساد الفتيَّة المؤمنة، التي لا تدع لأقدام الطغاة أن تمرّ إلّا على لحمها الطريّ، إذا لم نفعل ذلك فقد لا نجد دوماً الرجل المطلوب للمرحلة الحرجة، فيذهب الوطن طعماً للنار فيما نحن نبحث عبثاً عن المنقذ الغائب.

فإلى كل فتىً صغير من لبنان، وإلى كلّ طفل ووليد، وكلّ جنين ما يزال في رحم أمّه وكلّ مَن سيحبل به ضمير الغيب ليلده من ثَمَّ في هذه التربة التي ينبت فيها الرجال كما ينبت الأرز والصخر وحجارة الصوّان، نقدّم هذه اللمحة عن الإنسان الذي ضرب عرض الحائط بجميع المقاييس التي يجب، في العرف العام، مراعاتها ليؤمّن الشاب مستقبلاً زاهراً لنفسه، مندفعاً بقوَّة ليلبِّي صرخة لبنان حين صُمَّت الأسماع عن النداء وعزَّ المستجيب.

ونحن، إذ نقدّم لهم ملامح هذا الشاب ــ الأسطورة، وهو أسطوريّ بقدرته ــ وليدة الإرادة الجازمة ــ على جعل المستحيل ممكناً، لتصبح حكايته في كلّ بيت لبنانيّ مَثَلاً أعلى يصبو الى الاقتداء به الأطفال الذين لولا بشير الجميّل لما كانوا مرَّةً، وُلدوا على هذه الأرض، وليروي من اطّلع على هذه الحكاية خبرها لمن

فاتته، من أجل أن يُثمر المثل أمثالاً على شاكلته بقدر عدد أبناء كلّ جيل من أجيال الغد اللبناني.

أجل، إنَّ كلّ فتىً ينتسب أو سوف ينسبه قدره الى لبنان عليه أن يكون، لوطنه، نواة « بشير جميّل » جديد، عليه أن يكون مشروعاً لبشير جميّل آخر يدعوه لبنان يوماً ويجده كما دعا بشيراً ووجده في يومنا الحاضر.

فالخطى التي سارها بشير الجميّل أصبحت آثارها على الأرض طريقاً مرسوماً يقود من يسلكه الى مراقي العزّة والكرامة، ويهدي الأقدام الحائرة الى السبيل الذي يجدر بالمخلصين للبنان اتّباعه.

وبشير الجميل نفسه يجب أن يُصبح روحاً تشيع في حنايا كل لبناني وسيرة ملهمة تعلّم شبّان هذا الوطن وشابّاته كيف تُنفخ الحياة في الأشلاء وتتحوّل تروساً تردّ السهام عن لبنان.

إنّ بقاء وطن لبنانيّ في المستقبل رهن بوقوف من تُلقى عليه تبعة حمايته موقفاً لا يتزحزح عنه قيد أنملة كما فعل بشير الجميّل. وعيش اللبنانيين في وطنهم بكرامة رهن بوجود رهبان عقيدة ونسّاك عبادة للوطن، يتحوّلون فرساناً وشياطين ساعة يُلمّ الخطر بلبنانهم ويدق النفير، كما حدّد بشير الجميل نفسه المدافعين عن لبنان في خطابه الذي ألقاه بمناسبة ذكرى تأسيس الكتائب وذكرى الاستقلال عام ١٩٨٠ في جونيه: « نحن قدّيسو هذه المنطقة وشياطينها ساعة

يكون الخطر بالقضاء على لبنان واللبنانيين ...»

فلنقرأ لأجيالنا هذه السيرة ـــ القدوة إذن، لا لأنها سيرة بشير الجميّل، بل لأنها السيرة ـــ القدوة في الوطنيَّة الصادقة، تهدي الأجيال الصاعدة وتعلّمها معنى الحياة الحقيقي، الحياة المكرّسة لفكرة سامية.

ولنعِ أوّلاً وأخيراً أنّه قد أُنعم علينا بالانتساب الى وطن لا كالأوطان، وأننا لا نستحقّه وطناً اذا لم يكن عملنا في سبيله أعظم من عمل أيّ انسان في سبيل وطنه. فالبذل الأقصى هو ما يتطلّبه منّا، والنكران التام للذات في خدمته هو ما علينا تجاهه. وقصة بشير الجميل التي سيطالعها القارىء في هذه الصفحات فضلها أنها نموذج لهذا البذل الأقصى من اجل لبنان، وبهذه الصفة ينبغي ان تكون القصة الموجودة مع ابنائنا بين كتبهم المدرسيّة وفي عقولهم وقلوبهم.. ليكون لكلّ منهم، في مستقبل الأيام، حكاية كحكاية بشير الجميل من اجل حقّ لبنان وكرامة اللبنانيين.

انطوان خويري

نشأة بشير الجميّل

في حديث للشيخ بشير الجميّل على أثر معركة زحلة في ٢ نيسان ١٩٨١، روى قصّة الشابّين المقاتلين اللذين وُجدا متجمّدَين في الثلج وقد فارقا الحياة وهما في شبه تضامّ وعناق. هذان الشابان تحدّيا العدوّ والطبيعة معاً، فقهرتهما الطبيعة ولم يقهرهما العدوّ، وقد ماتا متشابكَي اليدَين وكأنّهما يتعاهدان على متابعة القضيّة التي نذرا النفس لأجلها حتى في مثواهما بين الجليد. فكما أنّ الموت لم يستطع أن يُفرّقهما الواحد عن الآخر، كذلك لن يستطيع ان يُفرّق بينهما وبين القضيّة التي توحّدا معها وغدت روحاً أخرى لهما يعيشان بها حتى بعد الممات.

ومن سمع حديث الشيخ بشير عن هذَين الشابَّين ولامست فؤاده اللهجة التي تكلّم بها عنهما مرّت بباله، دون شك، هذه الصورة وهي أنّ قائد « القوات اللبنانية » لو لم يكن من هو، ومن يُمثّل، وما يتحمّله من مسؤوليات جسام، لكان، بالتأكيد، أحد هذين الشابَّين.

بشير الجميّل، قائداً للقوات اللبنانية التي وقفت في وجه العالم أو مقاتلاً عادياً يتحدّى الطبيعة والطغيان البشري، من هو ؟ وكيف كانت نشأته وبمَ تميَّز في فتوّته حتى أهّلته شخصيته ومزاياه لتحمُّل المسؤولية النضالية العظمى التي اضطلع بها بالأمس القريب ثم لتحمُّل المسؤوليّة العظمى التي اختاره ممثّلو الشعب اللبناني للاضطلاع بها منذ اليوم وهي أن يكون على رأس لبنان ليسير به من الحرب الى السلام وإعادة البناء ؟ وهو في الحالين موكل بمصير لبنان: إمّا أن يبقى الى الأبد، وإمّا أن يزول الى الأبد.

وليد بيروت في العاشر من تشرين الثاني ١٩٤٧، ونجل الشيخ بيار الجميّل مؤسّس حزب الكتائب اللبنانية ورئيسه. تأثّر بمَثَل والده بعمق، وهو صغير العائلة المؤلّفة من ستّة أولاد: ذكَرَين وأربع فتيات. وبعد أن أنهى دراسته الثانوية في « المؤسسة اللبنانية الحديثة » اتّجه الى الحقوق والعلوم السياسية حيث نال الإجازة في كلّ منهما من جامعة القديس يوسف في العام ١٩٧١، منصرفاً على الأثر الى تدريس مادة التربية المدنية، لمدة ثلاثة أعوام، في المدرسة اللبنانية الحديثة.

واشترك، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، بمؤتمر للقانون الدولي عُقد في دالاس بالولايات المتحدة. ثم تابع دراسته لمدّة شهرين في واشنطن، رافضاً بعدها منحة دراسيّة عرضت عليه رغبةً في العودة الى لبنان وممارسة مهنة المحاماة الى جانب النشاط السياسي الذي غدا

نشاطه الوحيد منذ أن اندلعت حرب السنتين في لبنان ١٩٧٥ — ١٩٧٦.

ولكنّه، قبل هذا التعاطي الرسمي بالسياسة، بدأ منذ عهد حداثته يُخالط القوى النظاميّة الكتائبية، خصوصاً إبّان أحداث العام ١٩٥٨. وخضع من ثم الى تدريب عسكري منتظم، مقيماً هكذا صلة مباشرة بالقاعدة المقاتلة للحزب التي شكّلت فيما بعد نواة أداته العسكرية. وفي العام ١٩٦٩ أصبح مسؤولاً عن قسم بكفيا على رأس حوالي مئة من رجال الميليشيا من أصل ٤٠٠ كانوا يؤلفون مجموع مقاتلي الحزب في ذلك الحين. وفي العام ١٩٧٢ عُيِّن نائب رئيس منطقة الأشرفية. ويوم اندلعت الحرب في لبنان يوم ١٣ نيسان ١٩٧٥ اشترك الشيخ بشير شخصياً في المعارك، وكان قد انصرف بنجاح الى إنماء الميليشيا الكتائبيّة. لقد اشترك في البدء بمعارك عين الرمّانة والدكوانة (من نيسان الى حزيران ١٩٧٥)، ثمّ بمعارك وسط المدينة والفنادق الكبرى والكرنتينا والجبل. ولكنّه لم يكن حتى ذلك الوقت غير أحد معاوني قائد القوى الكتائبية المقاتلة، وليم حاوي، ثم نائباً له، إنما أصبح قائداً لهذه القوى بعد استشهاد هذا الأخير إبّان معركة تلّ الزعتر، كما أصبح رئيساً للمجلس الحربي الكتائبي في الثالث عشر من تموز ١٩٧٦. وبعد مدّة قصيرة، أي في الثلاثين من آب من العام نفسه، عُيِّن على رأس القيادة الموحّدة للقوات اللبنانية، بالإضافة الى كونه ركناً سياسيّاً أساسيّاً في المقاومة اللبنانية وقائدها العسكري.

ويوم الثالث والعشرين من آب ١٩٨٢ توّج سلسلة المسؤوليات التي تولّاها باختياره للمسؤولية الأولى في الدولة، فإذا هو أصغر رئيس جمهورية لأعقد وأشقّ مهمة مطلوبة من رئيس على الاطلاق، إلّا أن اللبنانيّين يؤمنون إيماناً يقينياً بأنه الرئيس الذي خُلق لمثل هذه الساعات، وانه، على العكس، لا يصلح للأوقات العاديّة التي تتطلّب رؤساء يكونون مجرّد مصرّفين للأعمال أو يُديرون إدارة روتينيّة مجرى الأمور في البلاد.

* * *

بشير الجميّل .. هذا موجز حياته. أمّا شخصيّته فقد بدت ملامح ما تتمتّع به من شجاعة، وبالتالي من ثقة بالنفس، وما تحلّت به من نضج ورجاحة تفكير باكرين بالنسبة الى سنّه، منذ أن أصبح مناضلاً في صفوف الحركات الطلّابيّة ثمّ من قادة هذه الحركات، حيث تجلّت مواهبه القياديّة باكراً، لا بل تجلّى تحلّيه بالشخصية القياديّة. وجاءته الفرصة ليبرز من هذه النواحي عندما بدأت الفوضى تدبّ في جامعة بيروت الأميركية، ما بين الادارة والطلّاب، إذ راح يعقد في منزله ومكتبه اجتماعات تضمّ عمداء الجامعة، معالجاً فيها الأمور بترفّع ومستوى، وباقتناع مخلص بالرأي الصّواب عند البحث في العمق، دالّاً بذلك على روح موضوعيّة لفتت أنظار العمداء وأثارت إعجابهم.

ويُروى أنّه لما طُلب إليه إدارة الجلسة الأُولى سأل ببعض العجب:

« أنا أدير الجلسة بحضور كبار العمداء؟!»، ولمّا لمس من الأجوبة أنّ الثقة به كاملة أدار الجلسة بنجاح.

ولمّا طرأت المشكلات في الجامعة اللبنانيّة على مِثال ما حدث في الجامعة الأميركية طُلبت مساعدته على حلّ القضايا العالقة لما كان له من تأثير في الأوساط الطلّابية، فسُوّيت على يده مشكلة الجامعة اللبنانية كما سُوِّيت من قبل مشكلة الجامعة الأميركية، إذ حلّ العقد القائمة بروح موضوعيّة جعلته يُناقش عمداء الكلّيّات كأنّه واحد منهم، خلافاً لجميع الزعماء السياسيِّين الذين لم يستطيعوا التفاهم مع العمداء.

ومثلما غزا قلوب أرباب القطاع التعليمي غزا قلوب أفراد القاعدة الكتائبيّة في الأقسام الحزبيّة المختلفة وخصوصاً أقسام بيروت. غير أن إرادة والده رئيس الحزب كانت تقف حائلاً بينه وبين إسناد المسؤوليات إليه حتى لا يُحمل هذا العمل على غير محمله، رغم أنه كان قد عُيِّن، في العام ١٩٦٩، قائداً لفرقة كتائبيّة مقاتلة، وأسس بعد ذلك فرقة بكفيا. وقد رُوي عنه أنّه، في حفلة عشاء في العام ١٩٧٢، قال بعد أن كان يتملكه الانقباض طوال الوقت: « مصيبتي أنّي ابن بيار الجميّل. إنّ كلّ أقسام الحزب في الأشرفية تريدني مسؤولاً عنها، ولكنّ أبي لا يريد ذلك... حتى لا يُقال إنّ بيار الجميّل يشدّ بأولاده ».

إنّما، بعد مراجعات عديدة من مسؤولي أقسام الأشرفية، قَبِل الشيخ بيار بأن يُصبح بشير نائباً لرئيس منطقة الأشرفية فقط، وما أن

تولّى هذه المسؤوليّة حتى بدأ بتأسيس هيئة « أصدقاء الكتائب »، وكان ذلك في العام ١٩٧٣. فراح يزور الأشرفية بيتاً بيتاً، ويطوفها زاوية زاوية، ثم أُقيم مهرجان كبير حضرته جماهير المحلّة وتدفّق خلاله وبعده مئات المتطوّعين ليكونوا أعضاء في « الكتائب » أو أصدقاء لها وملتفّين، في الحالَين، حول بشير الجميّل.

وفي العام ١٩٧٤ عُيِّن مديراً سياسياً لإقليم الاشرفية. وفي الزيارات التي كان يقوم بها، أو في مناسبات التقائه بالشباب والأهالي: حفلات، جلسات حوار، دورات تدريب، الخ ....، راح يُحلّل الأمور والأحداث ويدعو الى الاتحاد الذي تفرضه الضرورة الوطنيّة، فكان لحضوره وهج وسحر، وصار محبوباً من الجميع بصفته الشخصيّة فضلاً عمّا يُمثّل حزبيّاً ووطنيّاً. فقد كان يُحاور الشباب، ويُخالط جميع الطبقات والمستويات، كاشفاً عن شخصيّة مميّزة ينظر إليها مجتمع النخبة والوسط الشعبي على السواء نظرة واحدة، حيث لمس الجميع ما له من قدرة على الإقناع.

وهكذا شمل التعاطف معه مختلف الأوساط والجماعات: من التجّار الى الصناعيين، الى أساتذة الجامعات فأصحاب المهن والحِرَف الصغيرة. وتدرّج على هذا النحو في السياسة درجة درجة، واجتمع الى الكلّ، في نطاق المنطقة التي هو مسؤول عنها، شخصاً شخصاً، فتكوَّن لديه الحسّ السياسي الذي بات يُسعفه اليوم في معرفة كيفيّة معاملة الناس. أمّا السياسة المنتقلة بالوراثة فقد رفضها، مع أنّه كان يستطيع أن

يرثها لأنّها عريقة في البيت الذي نشأ فيه وان كانت مغايرة للسياسة بمعناها الاحترافي التقليديّ.

ومنذ أن أطلّت، في العام ١٩٧٤، طلائع الأزمة التي تـخبّط بها لبنان بدا، مع الأجهزة الحزبيّة، واعياً للمشكلة. فكان الإعداد للمعركة بفتح أبواب ثكنات التدريب التابعة له أمام أصدقاء الكتائب.

والمتدرّبون، في الساحات، كانوا شخصاً واحداً خلفه ؛ وكان يشترك معهم به، كما اشترك فيما بعد بالقتال، من الصباح الى المساء، حتى، عندما حانت الساعة، وجدنا الشباب في المعارك والباقين يحمون المؤخّرات.

والى جانب إيلائه الناحية الدفاعيّة القسط الأوفى من اهتمامه أولى الناحية الاجتماعيّة أيضاً ما تستحقّه من الاهتمام. فأسّس في البدء «دار العمل» في الأشرفية التي كان هدفها تحقيق التنظيم الشعبي على الصعيد الاجتماعي، ثمّ أسّس بعدها « الهيئة الشعبية » المعروفة اليوم.

واهتمام بشير الجميّل بالناحية الاجتماعية والاقتصادية جزء من تصوّره الشامل للبنان الغد وتخطيطه لبناء الوطن المثالي. وقد طرح « ميثاقاً اجتماعياً » جديداً متكاملاً دعاه « المشروع الاجتماعي للمقاومة اللبنانيّة »، وهو يستند الى خمسة منطلقات: الحرية والتخطيط كقاعدة، والانتاج وتكافؤ الفرص كنهج ... والمشاركة كأسلوب. ذلك أن بصيرته النافذة جعلته يرى أنّ حاجة المجتمع اللبناني الجديد هي في مثل حاجة

لبنان الجديد، فكما أنّ الدولة الجديدة تحتاج الى ميثاق وطني جديد هكذا المجتمع يحتاج الى ميثاق اجتماعي جديد.

ميثاق اجتماعي وضع خطوطه بشير الجميّل فجاء تصميماً كاملاً لبنية المجتمع اللبناني الخارج من الحرب ومن ماضيه معاً، لينطلق الى مستقبل يُرسيه على أساس منهجي ليس فيه شيء من الاعتباطية السابقة، والارتجال ... وترك الأمور تجري على عواهنها.

ويكفي أن نطّلع على شيء من هذا التصميم الذي رسمه بشير الجميّل لمجتمعنا المقبل لندرك ما لديه من رؤية شمولية للوطن الذي يحلم ببنائه : رؤية علمية مدروسة وليست تصوّرات خيالية أو شعريّة لعالمٍ طوباويّ :

«ـــ نريد مجتمع الحرية. والحرية كلّ لا يتجزّأ، فلا يستوي نظام حرّ في اقتصاد غير حرّ. وبالتالي نُعلن تمسُّكنا بالاقتصاد الحرّ كما تشبّثنا بلبنان الحرّ، وهو يقوم على قاعدتين: المبادرة الفرديّة والملكيّة الخاصّة. فالاقتصاد الحرّ يُنمّي المبادرة الفرديّة وينمو منها. ويُشكّل نظام حريّة القطع والتمويل، مع نظام السريّة المصرفيّة، أفضل إطار لمبادرات اللبنانيّين. والملكيّة الخاصة، بما فيها ملكيّة وسائل الإنتاج، هي حقّ طبيعي يجب المحافظة عليه، وأن يمارسه صاحبه لمصلحته الفردية ولمصلحة الغير.

ـــ نُريد مجتمع التخطيط، والتخطيط كلّ شامل ومتكامل.

وينطلق هذا التخطيط من وضع إطار لمخطّط توجيهيّ عام يُنظّم كلّ أراضي الوطن ويُؤمّن البنية التحتيّة اللازمة لكلّ النشاطات الاقتصاديّة والاجتماعيّة. إنّ هدف المخطَّط التوجيهيّ هو توزيع النشاطات في صورة متوازنة ومنسّقة على كل أراضي الوطن، مع أخذ ثروات هذه الأراضي ومواردها وخصائصها في الاعتبار. فلا ينمو قطاع على حساب قطاع، ولا تأكل منطقة منطقة أخرى.

— نريد مجتمع الإنتاج، فالإنتاج من طاقة الانسان أكثر ممّا هو من الثروة الطبيعيّة. لبنان طبيعة محدودة الموارد الأوّليّة، لكنه غنيّ في طاقاته البشريّة. والانتاج يعني استثماراً كاملاً لمواردنا الطبيعيّة، لكنه يعني أيضاً، وخصوصاً، تهيئة جيل من الشباب المنتج والمعدّ لاستيعاب التطور العلمي والتكنولوجي.

— نريد مجتمع تكافؤ الفرص. إنّ تكافؤ الفرص هو هدف الانتاج، فالإنتاج مهمٌّ للفرد، لكنّه مهمّ أيضاً كوظيفة إجتماعيّة. وعلى الحركة العمّاليّة في لبنان أن تكون مسؤولة أكثر في الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة. وفي المقابل لم يعد جائزاً ولا مقبولاً الاكتفاء بالتشريع الاجتماعي الحالي، بل يقتضي إيجاد هيكلية نقابية جديدة، واشتراع عقود العمل الجماعية كإطار للعقود الفرديّة.

— نريد مجتمع المشاركة، فلم يعد جائزاً ولا مقبولاً أن يبقى العامل بعيداً عن صاحب العمل وصاحب العمل بعيداً عن العامل، والدولة بعيدة عن الاثنين. إننا ندعو الى تنظيم جهاز مشترك بين العمّال

وأصحاب العمل، فنؤمّن بذلك إطاراً للتشاور والتوافق الدائم والمستمّر بين جناحي العمل، كما ندعو الى تشجيع المشاركة المثلّثة الأطراف بين العمّال وأصحاب العمل والسلطة ».

منجزاته في سبيل الحزب إذاً، كثيرة، فإلى جانب التخطيط للمستقبل، كان له منجزات محقّقة كمثل إنشائه « الهيئة المشاركة » التي ضمّت جميع الفعاليّات مستقطباً إيّاها حول الكتائب، وإنشائه « الأنصار » و « إذاعة لبنان الحرّ »، و « تلفزيون لبنان الحرّ »، و « مطار حامات »، وما إلى ذلك.

صفاته الشخصيّة لا يعرفها على حقيقتها إلّا المقرّبون منه والذين رافقوه عن كثب. فهو أبعد الناس عن حبّ العنف، ولم يُلجئه إليه غير واجب الدفاع عن وطن مهدَّد بخطر مصيريّ. فعندما حوصر في «ساحة ساسين» بالأشرفيّة من قبل قوّات « الردع » سنة ١٩٧٦ ضبط أعصابه بشكل لا يستطيعه غير إنسان شديد السيطرة على نفسه وشديد الحرص على أرواح أتباعه ورفاقه ومواطنيه. ذلك أنّ الكتائب حاصرت « الردع » الذي يُحاصره، ثم ضرب « الردع » نطاقاً آخر حول القوى الكتائبيّة، وعادت الكتائب فطوّقت هذا النطاق الردعي الثاني. وهكذا، باشارة واحدة من القائد المحاصَر، كان سقط ما لا يقلّ عن ألف قتيل. ولكنّه ظلّ ضابطاً أعصابه حتى فُكّت الحلقات بعد نصف ساعة وسَلِم الموقف.

أمّا في اليوم الذي دُعي بِـ « السبت الأسود » فقد كان نائماً عندما بدأت المجزرة ولم يعرف بما حدث إلّا بعد مضيّ فترة من الوقت، وعندما أُبلغ بما يجري راح يبذل جهوده لوضع حدّ له، وساعد بالفعل على إطفاء الهياج الحاصل وإنقاذ أرواح كثيرة.

وضبط عاطفته بصورة مثيرة للدهشة عند مقتل ابنته « مايا »، كما فعل الشيء نفسه عند مصرع ابن أخته « أمين الأسود »، وتحرّك بسرعة، بالرغم من حراجة الموقف، عند خطف «وليم حاوي» من قِبَل الفلسطينيين في « المكلّس »، وكان الشيخ بشير يومذاك نائباً له في قيادة مقاتلي الكتائب، فضبط الموقف بحزم ومسؤوليّة.

وفاؤه لأصدقائه ورفاقه يصحّ أن يكون مضرب مَثَل، وغيرته على المصلحة العامّة نموذجيّة أيضاً.

رفاق صفّه في المدرسة كانوا على يقين من أنه سيكون رجلاً ناجحاً في الحياة ويقولون: « كان دائماً ينال ما يُرِيد، لأنه، إلى جانب قلبه الذهبي، كان ينفعل بشدّة أمام كل ما يُمكن أن يُعرقل حصوله على ما يبغي ».

والأروع من ذلك طاقته الجسديّة التي تجعله يعمل أربعاً وعشرين ساعة كاملة بحيويّة ونشاط، وقدرته الفكريّة على استيعاب أعقد المواضيع والمسائل بسهولة وسرعة.

بشير الجميّل ترسّخ في التاريخ الى حدّ أن أعظم موسوعة علميّة

في القرن العشرين، وهي موسوعة « أونيفرساليس »، التي لم يُتح لكثيرين من المشاهير أن يُدرج اسمهم فيها، كتبت عنه في عددها الإضافي لـلـعام ١٩٨٢ تقول : « **هـو شاب ديناميكي بعيـد عن الايديولوجيّات، يرفض لغة السياسيّين المحترفين ويستعمل أسلوبا واضحاً ومباشراً، وقد توصّل الى مركز رئيس على الساحة اللبنانية. وهو يبني تحرّكه على مبدأين : استعادة لبنان لاستقلاله وسيادته في شكل فعليّ، ووضع حدّ للاحتلال السوري ـ الفلسطيني المزدوج** ».

هذا هو الشخص الذي رأى فيه اللبنانيون الرجل المرتجى لخلاص وطنهم ساعة ألمّت به الملمّات، ثم اختاروه مسيّراً لدفّة الحكم من على قمّة الهرم في البلاد ليتابع مسيرة الانقاذ، ولكنّه وهو في المقعد الرسمي أو كما كان في صفوف الشعب المحارب دفاعاً عن قضيّته وبقائه، سيظلّ صاحب العرش الروحي في أفئدة اللبنانيّين الذي ترخص أمامه المناصب جمعاء. إنه رسول العناية لإنقاذ لبنان، والإنسان التاريخي في المرحلة الحاضرة التي هي أخطر ما مرّ على لبنان منذ كان، وفي هذا مجد أين منه مجد الرئاسات والمناصب التي أضحت اسماً لغير مسمّى في هذا الوطن وهي لن تستعيد شأنها ووزنها إلّا على يد شخص مثل بشير الجميّل.

بشير الجميّل
و
القضيّة اللبْنانيّة

القَضِيَّة اللبْنانيَّة

تاريخ لبنان هو تاريخ مقاومة. فموقعه الجغرافي جعله ممرّاً للفاتحين، وجعل صخرة نهر الكلب شاهداً على ما تعاقب عليه من فتوحات وغزوات ... قابلتها استماتة في الدفاع عن الأرض والمعتقدات.

وبانتهاء العهود الوثنيّة وظهور المسيحيّة والإسلام على هذه الأرض ساعدت طبيعة لبنان الجبليّة ووعورة مسالكه على جعله ملجأً للأقليّات المضطهدة، حتى نمت فيه أسرة روحيّة تشترك مع المحيط الواسع الذي حولها في الايمان بالله الواحد، وإنَّما تختلف عنه في شعائرها وعبادتها ...

وهكذا نشأ ما سُمِّي بالمسألة الشرقية « La question d'Orient »، التي تتلخَّص بكونها مسألة الخطر المتواصل الذي تُشكّله الأكثريَّة الدينيَّة في الشرق على الأقليَّة التي تتكثَّف في لبنان خصوصاً، والتهديد الذي تتعرَّض له هذه الأقليَّة بالإبادة أو بالتهجير أو بالإخضاع بالقوّة.

ولا حاجة بنا للعودة الى مناسبات تجسُّد هذا الخطر في الواقع العملي عبر الزمن، فهي شيء معروف من الجميع، وما الأحداث والفتن في القرن الماضي سوى عنوان صارخ من عناوين هذا التاريخ الدَّامي. إلَّا أن العناية دائماً كانت تُهيِّء للبنان بطلاً منقذاً يردّ عنه غائلة الشرّ، بحيث يخرج سالماً في النهاية مهما غلت القرابين والتضحيات التي يقدّمها في هذ المعارك المصيريَّة. وما أسماء يوسف كرم، وأبي سمرا غانم، ويوسف الشنتيري، إلَّا حلقات في سلسلة الأبطال الذين أُلقيت على كواهلهم في حقبة من الحقب مسؤولية الدفاع عن هذا الوطن ضدّ الكبار الأقوياء على طريقة الفتى داود في منازلة جوليات الجبّار.

أجل لطالما صدع اللبنانيون بمقلاعهم جباه المتجبّرين الطغاة، وليس وضع لبنان اليوم وهو يُحارب عالَماً متألباً بأسره عليه، ما بين منفّذ للُّعبة، ومتواطيء معها، ومُغضٍ عنها، ومساومٍ عليه فيها، والأعدل الأعدل من التزم حيالها موقف الحياد، ليس وضع لبنان هذا غير صورة عصريّة للإنسان الأعزل وهو يُواجه قوى الدنيا، والقادر مع ذلك، بإيمانه وتشبّثه بأرضه وحقّه، أن يصمد ويسجّل ملحمة بقاء وسط أحلك الظروف الآيلة الى الاضمحلال والفناء.

قلق ومعاناة

وإنّ الاحداث التي شهدها لبنان عبر تاريخه القديم، وصولاً الى العام ١٣٠٥ يوم عانى من غزوات المماليك بقوّة وبسالة، الى العام

١٨٦٠ حيث بلغت الحوادث ذروتها وجعلت المسيحيِّين يعيشون في قلق دائم ومستمرّ على مصيرهم في هذه البقعة الصغيرة من الأرض المشرقيّة.

وبعد المعاناة الطويلة، نتيجة المساومات الدولية والتآمر على سكّان الجبل، وُضع نظام المتصرفيّة الذي أمّن لهم الاستقرار والازدهار وإن على حساب بعض المسيحيِّين الذين ضاقت بهم رقعة الأرض فهاجروا سعياً وراء الرزق، وجعلوا من انتشارهم اللبناني في العالم ملحمة مجد وفكر وريادة .

ولكنّ الأيّام عادت وقست على أبناء الجبل، فتكرّرت مسيرة الاضطهادات على يد « الأشقّاء » كما سنرى، وساومت الدول الكبرى على حساب المسيحيِّين أيضاً خدمة لمصالحها أوّلاً، ثمّ تولّى السوريون الحفاظ على أمن الثورة الفلسطينية، فوجَّهوا نارهم الحاقدة على المسيحيِّين الذين أبوا الذلّ والاستسلام، فاعتصموا في جبلهم يُقاومون الطغيان ويستشهدون في سبيل الحرية والكرامة على مرأى من العالم المتحضّر وتجاهله الواقع المرير. هذا مع العلم بأنّ اللبنانيِّين المسيحيِّين، وفي طليعتهم بعض الموارنة، لم يتردَّدوا يوماً عن حمل مشعل القوميّة العربيّة في كل منتدى ومحفل دوليّ ــ كما القضيّة الفلسطينية فيما بعد ــ، بالرغم من الانقسام الذي يعود تاريخه الى العام ١٩١٩ ــ ١٩٢٠، عندما طُرحت المسألة اللبنانية على مؤتمر

الصلح في باريس وأعلن بعدها الجنرال « غورو » دولة لبنان الكبير، بـ « مؤتمر الساحل » الشهير الذي اتخذ مقرَّرات عدّة، أهمّها:

« طلب السيادة القوميّة، مرتكزة الى الوحدة السوريّة أوّلاً، فالوحدة العربيّة ثانياً، واتخاذها دستوراً أعلى يُعمل على تحقيقه بكلّ الوسائل المشروعة » .

وبالرغم أيضاً من « المأساة الوطنيّة » التي كان يعيشها لبنان، المنقسم جغرافيّاً وبشريّاً ونفسيّاً، تجاه الاتجاهات الوحدويّة التي كانت تتجاهل الكيان اللبناني لم يتردّد اللبنانيون المسيحيّون ولم يُمانعوا في التعاون مع السوريين من أجل تحقيق الاستقلال والتحرّر من الانتداب الفرنسي ومن كلّ حماية أجنبيّة.

وبعد إعلان « لبنان الكبير » و « الجمهورية اللبنانيّة » ظلّ السوريّون، والزعماء المسلمون يُحجمون عن التعاون مع الحكم الوطني، ويترقّبون الفرص السانحة لإضفاء الصبغة العربيّة الكاملة على لبنان تمهيداً لاعتباره جزءاً كاملاً من الأُمّة العربية، وبالتالي طمس أو محو مميّزاته الخاصّة.

« قوي هذا التيّار مع بروز نجم الرئيس المصري جمال عبد الناصر، فكانت أحداث ١٩٥٨ محاولة واضحة لضمّ لبنان الى تيّار الوحدة العربيّة، ولو عن طريق القوّة. وهكذا كان يطغى التعصّب

الديني والشعور القومي عند أكثريّة المسلمين على الحسّ الوطني، وهو أمر من الخطورة بمكان ».

وبعد إعلان ميثاق ١٩٤٣، وتثبيت السيادة اللبنانيّة، وانتفاض الشعب اللبناني كلّه ضدّ فرنسا، وتآزر المسيحيّين ممثّلين بحزب « الكتائب » مع المسلمين ممثّلين بحزب « النجّادة » ضدّ الفرنسيّين، وتحقيق الاستقلال الناجز، برزت الحركة الكتائبيّة حزباً لبنانيّاً منظّماً هدفه السلام السياسي والخلقيّ والنِظام والاتحاد، واستبدال الغايات الطائفيّة القديمة بغاية وطنيّة، وذلك لاستعادة الثقة واللّحمة بين اللبنانيين وإحداث النهضة المنشودة، حتى تمكّنت من أن توازن برصانة ما بين معطيات الفكر القومي وبين الواقع اللبناني، رافضة بقوّة التسليم بِـ « نظريَّة » « سوريا الجغرافيّة »، بل بلبنان « وحدة سياسيّة وتاريخيّة وجغرافيّة »، وكذلك « أبت التسليم بِـ « نظريّة » الأمّة العربية تشمل الشعب اللبناني في ما تشمل .. لأنها لا تتفق وكون اللبنانيّين أمّة مميَّزة عن سواها ... ».

واعتبرت الكتائب « أنّ كل نظريّة تقول بلبنان مسيحي أو مسلم نظريّة خاطئة وخطرة » ـــ وهذا ما أكّده في كلّ خطبه قائد القوات اللبنانيّة الشيخ بشير الجميّل ـــ، وطالبت بدستور مدني علماني يخدم الأديان ويحظّر استخدام أيّ قوانين مذهبيّة مسيحيّة كانت أو محمّديّة ».

القضية اللبنانية والثورة الفلسطينية

وبعد خمس وأربعين سنة من النضال اللبناني الواعي والحرّ من أجل بناء دولة الاستقلال بعد استقلال الدولة، والنضال الكتائبي المجسَّد بإيمان بيار الجميّل وصلابة عقيدته ودخول الكتائب المعترك السياسي بهدفين: الأول الدفاع عن الاستقلال، والثاني بناء دولة الاستقلال انطلاقاً من مبادئها الأساسية وتطلّعاتها المستقبلية، حصل لبنان على نتائج مهمّة وفوائد كبرى في مختلف الميادين والحقول، بفضل جهود رجالات الكتائب وتضحياتهم وإخلاصهم للبنان « الوحدة الكيانيّة ».

... وفي هذه الفترة استضاف لبنان الفلسطينيّين، ثم راح عددهم يتزايد حتى بلغ الستماية ألف، فأصبحوا يُشكّلون ثقلاً ديموغرافيّاً.

ثم دخلت الثورة الفلسطينيّة طرفاً ثالثاً في القضية اللبنانيّة الى جانب المسلمين، وعادت لتبرز من جديد نغمة الإحصاء والغبن والحرمان، ومعزوفة المطالب والامتيازات ... ووجد الفلسطينيّون فرصة سانحة لحمل الغالبيّة من المسلمين على الانحياز إليهم دون تحفّظ من أجل تحقيق « الأهداف المشتركة » !...

وبدأ الشارع الاسلامي يتلاحم مع الفلسطينيّين، عبر التظاهرات المنظَّمة في مناسبات مختلفة التي رُفعت فيها الرايات العربيَّة واستُبعد عنها العلم اللبناني. وغدت جامعة بيروت العربيّة والجامعة اللبنانيّة وغيرهما منبراً

للتحرّك الفلسطيني الإعلامي والفدائي، وغطّت جدران الجوامع والمؤسّسات والشوارع رسوم ثوريّة تخاطب القلب لا العقل، الوجدان لا المنطق، وضغط الفلسطينيّون على الزعماء المسلمين لإظهار تأييدهم لهم علانيّة، والتقت أهداف كمال جنبلاط ومصالحه مع تحرّكاتهم، فتفاعل الاتجاهان وتلاحما في حركة يساريّة تُوّج جنبلاط زعيماً لها.

وقد استعان هؤلاء بكل النظريات التي تفلسف مشروعهم الرامي الى تكييف الوطن والكيان على النحو الذي يكرّس الوجود الفسطيني فيه ويؤمّن له كلّ ضمانات البقاء والاستمرار، وأوجدوا كلّ المبرّرات اللازمة، ومنها ادّعاءات البعثيّين، والسوريّين القوميّين والعروبيّين على مختلف فصائلهم الناصريّة والليبيّة، كما استعانوا أيضاً بالسلاح على أنواعه، وبالتناقض الطبيعي القائم ما بين المسلمين والمسيحيّين، والذي أتاح لهم إغراء المسلمين والتغرير بهم أكثر من مرّة. وعلى هذه الصورة تمكّن هؤلاء من الاستيلاء على ما استولوا عليه من الأرض وشعبها ومن الدولة ومؤسساتها، ممّا حمل المسيحيّين على خوض حرب فُرضت عليهم فرضاً .. دفاعاً عن حقّهم ووجودهم وكيانهم، وذوداً عن وطنهم ومقدّساتهم.

وراح الزعماء المسلمون بعد ذلك يُطالبون باستقالة رئيس الجمهورية الماروني، ثمّ انهالت الثروة العربية عليهم وعلى الزعماء الفلسطينيّين، فتناسوا قضيّة فلسطين، وبدأوا بتخريب البلد المضيف من جنوبه الى شماله، وأقاموا الحواجز، وخطفوا المارّة، وحوّلوا مخيّماتهم الى

أوكار للمجرمين الدوليِّين والفارّين من وجه العدالة، وراحوا يتعرّضون لرجال الأمن ثمّ الجيش، فكان لا بدّ من حوار، وكانت « اتفاقية القاهرة » غير السعيدة الذكر.

واستمرّ توتّر العلاقات مع السطات اللبنانية، فكانت حوادث ١٩٧٣ مع الجيش، وكان « تفاهم ملكارت ». وتتابعت الاتفاقيات التي كانت تُخرق من قبل « الفلسطينيّين الأوفياء » قبل أن يجفّ الحبر على ورقها. ثم راح « الأبوات الفلسطينيّون » يُدخلون في روع المسلمين أنّ الجيش اللبناني هو جيش النصارى. ووجد المرحوم كمال جنبلاط الفرصة مؤاتية لتقويض النظام والوصول الى الحكم .. فيتخلّص بذلك من « عقدة الموارنة » ...

(ويكفي دلالة على موقف جنبلاط من الحرب في لبنان ما جاء عنه في خطاب الرئيس السوري حافظ الأسد في ٢٠ تموز ١٩٧٦). (راجع «موسوعة الحرب في لبنان» لأنطوان خويري ـــ الجزء الثاني ـــ ص. ٧١٣)

وبعد اغتيال النائب السابق معروف سعد في صيدا ووقوع حادثة عين الرمانة راح الفلسطينيون وأعوانهم اليساريّون والمرتزقة يزرعون أرض لبنان خراباً وموتاً ودماراً ... خطفوا الأبرياء وقتلوهم على الهويّة، ذبحوا الأطفال أمام أمّهاتهم، وانتهكوا الأعراض، وسرقوا المصارف والأسواق التجاريّة، ودمّروا المصانع، واغتالوا المفكّرين، وأحرقوا المكتبات، وشرّدوا الألوف من السكّان في وطنهم .... فكانت مأساة الدامور، والناعمة، وشكا، وعشاش، وبيت ملّات، ودير جنّين، والقبيّات، وتلّ عباس، ودير

الأحمر، وزحلة، والقاع، والقدّام، وتعلبايا، والدبيّة، ومعاصر بيت الدين، والعيشيّة، وعينطورة، والمتين والعديد من القرى المسيحيّة ... ثم كان الاعتداء على الأديار والمدارس والكنائس والمقابر ... وامتلأت الساحات والشوارع والجدران بشعارات تذرّ الرماد في العيون وتنفث السموم في العقول، منها: « **الإسلام هو الدين الأقوى** »، « **الله أكبر والموت للمسيحيِّين** ». كما وُزّعت منشورات تزرع في النفوس الحقد على المسيحيِّين وزعمائهم، ومنها مقال للمدير العام لدار الافتاء السيد حسين القوتلي وفيه موقف المسلمين بحكم معتقدهم من الدولة والوطن والحكم، وقوله إن: « **بقاء لبنان بصيغته الحاضرة يُحتّم أحد أمرين: إما أن يتنازل المسلمون عن إسلامهم ليبنوا مع المسيحيِّين دولة علمانيّة عصرية ــ وهذا غير وارد بالنسبة الى المسلمين ــ، وإمّا أن يرضى المسيحيّون بحكم إسلامي ...** »

هذا فضلاً عن تصريحات الرئيس الليبي معمّر القذّافي الذي قال : « **من الشاذّ أن يكون في الوطن العربي عربيّ غير مسلم، والعربيّ غير المسلم موقفه خاطىء ويجب أن يكون مسلماً ... ويُصحّح موقفه .»** ... وأضاف: « **ولا يجوز أن تكون من الأمة الإسلاميّة ودينك غير دين هذه الأمّة. فالقوميّة والدين وجهان لعملة واحدة.** » !... ثم تهديده بالقول: « **المسيحيّون في لبنان، ولا سيّما الموارنة، أمامهم حلّان لا ثالث لهما: إمّا أن يعتنقوا الإسلام، وإمّا أن يتنازلوا عن الحكم للمسلمين ويخضعوا لحكم إسلامي ــ عربي** ».

هذا بعد أن كان القذافي قد اتصل في بداية الأحداث هاتفيّاً بسياسيّ بيروتي مسلم وقال له بالحرف الواحد: « **يجب أن يتحوّل لبنان الى حمّام دم** ».

وفي مجال آخر عطّلت المقاومة الفلسطينيّة أجهزة الدولة، وشلّت مؤسّساتها، ونهبت المستندات والسجلّات من مقرّ رئاسة الحكومة، ومن المجلس النيابي، ومن الوزارات والإدارات العامّة والمصالح المختلفة. وامتدّت يد الغدر الى كليّات الجامعة اللبنانية فبعثرت أوراقها، والى دار الكتب الوطنيّة فسرقت أثمن المخطوطات والكتب وأحرقت الباقي، ولم توفّر أيضاً السرايات والمجالس البلديّة في البقاع والجنوب والشمال، فأتلفت صكوك التملّك بهدف القضاء على الملكيّة الخاصّة، ودمّرت المتاجر والمصانع بهدف هدم ركائز النظام الاقتصادي الحرّ، كما أتلفت سجلّات قيد النفوس، ومنحت الجنسيّة لأعداء لبنان بشكل سافر، فغدا اللاجئون والمخرّبون والمرتزقة والغرباء أهل الدار، واللبنانيّون على اختلاف مذاهبهم مشرّدين لاجئين في وطنهم.

ثم تحوّلوا الى الثكنات، فاستسلمت الواحدة تلو الأخرى للمقاومة الفلسطينيّة وللملازم الفارّ أحمد الخطيب ورفاقه الخونة الذين أنشأوا ما يُسمّى بِـ « جيش لبنان العربيّ »، فاستولوا على المدرّعات والمصفّحات والمدافع والذخيرة، وصوّبوا القنابل والصواريخ نحو المدن والأحياء السكنيّة، والى القصر الجمهوري في بعبدا لإزالة آخر مظهر من مظاهر الشرعيّة. وبعدها هيمنوا على وسائل الإعلام من إذاعة وتلفزيون

وصحف مأجورة للتنكيل بالوطن الجريح، وتزوير التاريخ أمام الرأي العام الدولي.

انتفاضة المسيحيِّين وإرادة البقاء

ولكنّ المسيحيِّين لم يستسلموا أمام هذه الهجمات البربريّة فهبّوا هبّة الرجل الواحد، كما شهد تاريخهم الطويل في العزم والمجد والبطولة، وحملوا العَلَم اللبناني عالياً بقيادة « الجبهة اللبنانية » ضدّ الفلسطينيِّين وأعوانهم، وضدّ القوات السورية المحتلّة التي دخلت لبنان بذريعة حماية المسيحيِّين بعد أن عجزت عن دخوله بقوّة السلاح، فإذا الوقائع تكشف بسرعة للذين ذَهلوا عن هذا الدور ان سوريا كانت، وهي مستمرّة، جيش احتلال يسعى الى تحقيق أطماعها التاريخيّة في لبنان. ولذلك كانت حرب المئة يوم في الأشرفية التي تعرَّضت لتدمير منظَّم، وحرب الإثنين والتسعين يوماً في زحلة التي تعرَّضت بدورها أيضاً لمحاولة تركيع وإذلال واحتلال، وهما الحدثان اللذان أسقطا القناع عن وجه سوريا. وقد تمكَّنت « القوات اللبنانية » بقيادة قائدها الشيخ بشير الجميّل، وبفضل بسالة الشباب اللبناني البطل، من صدّ هجمات الجيش السوري المحتل وأعوانه الفلسطينيِّين واليساريِّين بقوّة وعناد وصمود أدهش العالم، لأنها صاحبة حقّ وقضيّة مقدّسة. وقد ثبت نهائياً للملأ أنّ مؤامرة القضاء على المسيحيِّين لن تمرّ في بيروت وصيدا، أو زحلة وبعلبك، أو طرابلس، وأنّ طريق فلسطين لن تمرّ في جونيه وعيون السيمان، ما دامت « المقاومة اللبنانية » تتلو كلّ يوم فعل إيمانها بلبنان

وتقسم على تحرير الوطن حتى آخر ذرّة من ترابه المفدّى.

وإذا صحّ ما قيل يومها من أن الدافع الى كل ذلك ــ كما ورد على لسان المرحوم كمال جنبلاط ــ كون ستة أو سبعة فلسطينيّين باستطاعتهم ان يقضوا على مسلّحي الكتائب اللبنانيّة، ورميهم في البحر ... وتنتهي المسألة، أو كما قيل بعدئذٍ ــ نقلاً عن لسان مسؤول كبير في دولة عربية مجاورة ــ من أن إشغال الأربعمئة مقاتل كتائبي في الأسواق ومنع بشير الجميّل من تحويلهم ونقل سواعدهم الى سائر الجبهات أمرٌ كافٍ لاستنزاف المقاومة اللبنانية وإسقاطها، فإنّ الأيام والوقائع المذهلة أثبتت أن بشير الجميّل والمقاومة اللبنانية هما أقوى من كل المؤامرات لأنّهما يستمدّان قوّتهما من قوّة إيمانهما بربّهما وبعدالة القضية التي نذرا نفسيهما من أجلها، وبهذا الوطن وضرورة وجوده وبقائه واستمراره.

إرادة البقاء، هذا هو مختصر تاريخ الشعب القاطن هذه البقعة من الأرض الأشبه بجزيرة صغيرة في خضم واسع متلاطم الأمواج وهي تتكسّر على صخورها دون انقطاع. ولقد وصل الأمر ببعض سياسيّي الغرب الى حدّ اعتبار الوجود اللبناني على هذا الشكل عملاً ضدّ الطبيعة (Un acte contre nature) سوف ينتهي حتماً بذوبان اللبنانيّين في محيطهم أو باقتلاعهم من المساحة الجغرافية الضيّقة التي تجذّروا فيها على مدى أجيال. إلّا أنّ المعجزة كانت تحصل دوماً بأن يبقى لبنان لأهله رغم كل العوامل المؤدّية الى عكس ذلك، ودائماً كانت تتمّ المعجزة على يَدَي منقذٍ يُقيّضه القدر للبنان في الظرف العصيب الذي

يتلفَّت فيه المواطنون يمنةً ويسرةً بحثاً عن خشبة الخلاص أو حتى عن بارقة الأمل الضئيل وسط اشتداد الخطب واحتدام الأنواء.

هذا التحدّي اللبناني لعوامل الطبيعة والبشر أصبح، إذاً، ميراثاً يتناقله الخلف عن السلف، والحفاظ على لبنان في هذا الإطار من واقع الحال أصبح، بهذه الصفة، أمانة يتوارثها اللبنانيّون في أعناقهم بحيث يُسلّمونها، في كلّ عصر، الى البطل الذي يهبّ من بينهم متطوّعاً للنهوض بالعبء الكبير، عبء ممارسة فعل التحدّي والتعبير عن إرادتهم في البقاء. فحامل الأمانة في يومنا يحمل ميراثاً انتقل إليه من عهد الأجداد ويعبّر، لا عن إرادة آنيّة، بل عن إرادة تاريخيّة تبلورت حتى غدت بحجم وجود لبنان لأنها، وحدها، حفظت هذا الوجود .. وبوهنها أو تلاشيها، لا سمح الله، يزول لبنان في طرفة عين.

إنها الحقيقة اللبنانيّة التي أوجزها ميشال شيحا بقوله: « قدر لبنان أن يكون موجوداً دائماً .. وإنما دائماً في خطر ». فلبنان فرض نفسه على الوجود ولم تستطع العوادي محوه من على وجه الخريطة في أيّة مرحلة من الزمن، إلّا أن وجوده هذا ظلّ محفوفاً بالخطر منذ بدايته حتى اليوم، وقد تفجَّر هذا الخطر في وقتنا الحاضر على أوسع مدىً وطُرح مصير لبنان جديّاً على بساط البحث، لكنّ ثماني سنوات من الحرب التي أورثت البلاد احتلالاً ودماراً لم تستطع إلغاء الكيان الذي أثبت أنّ نسمة الحياة الخافقة فيه أقوى من أيّة نسمة حياة غيرها، وأنّ بناءً بُني على صخرة بيد الله لن تقوى عليه أبواب الجحيم.

بَطَـــل بحجـْم القضـيَّة

ولكن ... كما أنّ الخطر الّذي تفجّر على لبنان في الأحداث الحاضرة تجاوز نطاقه كلّ خطر سابق مرّ به هذا الوطن فإنّ المنقذ الذي تصدّى له تجاوز، بصلابته وجرأته وعدم تنازله عن ذرّة من حقّ بلاده، جميع الأبطال الذين تعاقبوا عبر التاريخ على قيادة نضال اللبنانيّين من أجل البقاء.

لقد كان البطل الذي طلع من بين الصفوف بحجم القضية التي انبرى للدفاع عنها، ولولا روح الفداء التي عصفت في صدره بحيث لم يعد معها يهاب أيّ احتمال من الاحتمالات على هولها وكثرتها، ولولا إرادة حديديّة تسلّح بها مستلهماً إيّاها من عزم لا يتزعزع على أن يبقى لبنان للبنانيِّين، ولولا طبع بعيد كلّ البعد عن المساومة حتى لا تجدي معه محاولات الضغط المألوفة، أو الإسكات أو تليين المواقف، لما استطاعت المقاومة اللبنانيّة، حتماً، أن تصمد صمودها الذي شهدناه، وتقلب جميع الحسابات والمخطّطات جاعلة العالم يقف حائراً أمام شعب لا

كالشعوب حين مصيره بالذات في الميزان.

هذه هي الملامح الكبرى لشخصيّة الناهض بالمسؤولية الضخمة في يومنا، مسؤولية صون الأمانة التي صانها من مرّوا قبلنا على هذه الأرض ولا يمكن التفريط بها مهما كانت الاعتبارات والمشقّات التي علينا أن نتحمّلها من أجل ذلك.

ففي خضمّ لعبة دوليّة لم تُحدَّد تحديداً أصحَّ من القول عنها أنها أكبر من الوطن الصغير، ومع تفجّر الخطر التاريخي على لبنان، الذي سبقت الإشارة إليه، على أعنف ما يكون التفجّر، ومع تمكّن القوى الجرّارة من السيطرة على ثمانين بالمئة من الأراضي اللبنانية، بقي هناك إنسان معاند، مع حفنة من الشباب، يقولون لا ويُحاربون بلحم أكفّهم في البدء، ثم يتدبّرون بوسائلهم الخاصّة وإمكاناتهم الفرديّة بعض السلاح يحمون به البقيّة التي بقيت لهم من الأرض ولا يدعون قدماً غريبة أن تطأها ولو أمكن قصفها وترويع أبنائها من بعيد. إلّا أن هذا الإنسان، وتلك القبضة من الشبّان الملتفّة حوله، كان معهم ضمير لبنان كلّه، وكانوا يمثّلون روح المقاومة في هذا الشعب منذ أن اعتصم في مغاور جباله وكهوفها التي لا تطالها أقدام الغزاة الى أن مات زهرة شبابه شهداء على أعواد المشانق. فما لبثت المقاومة اللبنانية أن كبرت عدّة وعدداً وصارت قوة عسكريّة يُحسب لها حساب وكفيلة بردّ العدوان، أيّ عدوان، عن الجزء المحرر من الوطن مع التصميم على تحرير الأجزاء المحتلّة منه، وأصبحت « القوات اللبنانية » جيشاً نظامياً مدرّباً يعمل

بحسب أحدث القواعد العسكريّة ويُضاهي الجيوش العريقة بأساليب قتاله التي أدهشت المراقبين من جميع الدول حتى شهدوا بأنّ المقاتل اللبناني هو مقاتل من طراز رفيع يندر مثيله في أرقى الجيوش.

أجل، تطوّرت « القوات اللبنانية » هذا التطوّر الكبير في سنوات معدودات، وتحوّلت من ميليشيا مرتجلة للدفاع عن لبنان في غياب قوّاته الشرعيّة التي غُلَّت أيديها عن القيام بالواجب، الى جيش حقيقيّ بكل معنى الكلمة ومجهَّز تجهيزاً يمكّنه من أداء مهمّته. شيء واحد لم يتطوّر مع هذه المقاومة ولم يكبر معها ... هو الايمان الذي تستمدّ منه تصميمها على أن تكون حجر عثرة في طريق المتربّصين شرّاً بلبنان، لأن هذا الايمان وُلد كبيراً منذ البداية، لا بل كان وحده الكبير أيام ضعف الإمكانات والمقدّرات، ولا تزال شعلته على اضطرامها في صدور أصحابه لا تدع يأساً ولا فتوراً أن يتسرّبا الى نفوسهم.

هذه « القوّات »، بدائيةً محدودة أم ناميةً متطورة ، ارتبطت ارتباطاً عضويّاً باسم قائدها بشير الجميّل. فالقاصي والداني علم أنّ هناك قائداً شاباً في لبنان لا يمكن ترويضه ولا إقناعه بغير رأيه ولا تخطّيه في مشاريع الحلول التي تُطبخ لغير مصلحة وطنه، كما فشلت كلّ تجارب الحسم العسكري معه، وان هذا القائد هو العقبة القائمة في طريق أصحاب المؤامرات والنيّات والسياسات والمخطّطات .. ما دام مصمّماً على أن لا هوادة في نضاله حتى يستقيم الأمر للبنان ويستعيد سيادته وحرّيته وعافيته وأرضه كاملة غير منقوصة، وهو قد جاء الآن يُحقّق ذلك

من موقع المسؤولية السياسية بعد أن عمل لأجله من موقع المقاومة المسلحة.

وإذا كان الرفض اللبناني للاستسلام قد تمثّل سياسيّاً بأكثر من شخص واحد، أي بأركان « الجبهة اللبنانيّة » من جهة وبحزب « الكتائب » ككلّ من جهة ثانية، فهو عسكريّاً تمثّل بـ « القوات اللبنانية » التي نفخ فيها بشير الجميّل روحه حتى غدا هو هي وبالعكس، وحتى ليستحيل عليها أن تكون هكذا كما نعرفها مع قائد آخر .. كما كان يتعذّر على المقاومة الفرنسية للاحتلال الألماني في أثناء الحرب العالمية الثانية أن تهبّ من العدم وتلملم بقايا الجيوش الفرنسية والشعب الفرنسي لتقاوم بها العدوّ المنتصر أيّ انتصار، تحت شعار أنّ فرنسا خسرت معركة ولكنّها لم تخسر الحرب، لولا روح ديغول وشخصيّته الفريدة وعزمه الذي لا يلين على تحويل الهزيمة نصراً وإعادة بلاده الى سابق عظمتها وهي الرازحة تحت وطأة « الكابوس الهتلريّ » الذي لا يرحم.

المقـاوَمة اللبْنانيّة وبشـيرالجميّل

المقاومة اللبنـانية غدت ، إذاً بشير الجميّل ، تقمَّصته وتقمّصها حتى أصبحا واحداً لا يتجزّأ. وإذا كان ثمّة معارك في مستهلّ الحرب اللبنانية قد حملت اسم غيره فالمعارك التي تلت حملت اسمه دون سواه، مع العلم بأنّ المعارك الأولى كان فيها واحداً بين صفوف المقاتلين .. يُرضيه كلّ الرضى أن يكون جنديّاً مجهولاً في الدفاع عن حياض لبنان ومقدّساته.

إنّ معارك الأسواق في بيروت، ومعارك الجبهات في الضواحي منذ العام ١٩٧٦، ومعارك زحلة وقمم الجبال من صنين الى عيون السيمان الى جرود العاقورة، والتي انتهت بفشل القوات المعتدية أمام الحق والعناد في الدفاع عنه، فلم يتقدّم المعتدون خطوة داخل المناطق الحرّة، لا بل سجّلوا انسحابات في أعقاب القتال رغم عدم تكافوء

القوى في أثنائه، نقول: هذه المعارك كلّها كانت معارك بشير الجميّل، سواء بقيادتها أو بطابع المقاومة الفولاذيّة الذي ارتدته، فأتت على صورة القائد متميِّزة بميزته في الثبات على موقف لا يتزحزح عنه.

ويوم بدأت المفاوضات باجتماع اللجنة العربية الذي انعقد في لبنان، خلال معركة زحلة وبيروت والجبل عام ١٩٨١، ثمّ باجتماعات لجنة المتابعة التي انبثقت عنه، كان في علم الجميع أنّ الشخص الذي يحمل في فمه كلمة الفصل بالقبول أو بالرفض هو بشير الجميّل. فهو الممسك بالزمام ميدانيّاً في المنطقة الشرقية، وهو الذي ينبغي الاعتراف بوجوده رغم كلّ محاولات الدوران حوله بالتستّر وراء التمسّك بشرعية غير قادرة وحدها على الوقوف بوجه ما يُحاك للبنان.

وهكذا كان، وجاء بشير الجميل الى القصر الجمهوري بلباسه العسكريّ يُفاوض من منطلق المسؤوليّة الدفاعيّة عن وطنه المهدَّد المستباح. وفي بعض الهمس الذي تسرّب عن هذه المقابلة أن كلاماً في مثل دويّ المدفع هو الذي سمعه أعضاء اللجنة منه، كلام خلاصته وفحواه: أن المقاومة اللبنانية مستمرّة الى ما لا نهاية ودون سؤال مسبَق عن نتيجتها ومصيرها لأنّ القضيّة هي قضيّة حياة أو موت لا خيار فيها، وأنّ المدافعين عن لبنان هم جنود السلام عندما يكون سلاماً عادلاً لا افتئات فيه على الوطن، وهم جنود الحرب في جميع وجوهها واحتمالاتها إذا بقيت خواطر الشرّ تتردّد في بعض الأذهان والنفوس.

لماذا بشير الجميّل ؟

لماذا بشير الجميّل ؟ كيف وقع الاختيار عليه لتسليمه المهمّة الشاقّة؟ وكيف خرج المقاتل من بين رفاقه ليحمل المشعل أمامهم ويغدوا هو القائد والرمز الناطق للصمود؟

الجواب عن هذه الأسئلة لا يكمن في تفسير عاديّ للأمور يقوم على كون الشخص نجل مؤسّس حزبِ الكتـائب اللبنـانية ورئيسه، أو على كونه حلّ محلّ القائد السابق وليم خاوي، الذي استشهد في معرض أدائه لواجبه، لأنه كان نائباً له. الجواب الحقيقي لا يُدركه إلّا من عاش فترات الأزمات الخانقة التي يكاد معها الناس أن يصبحوا في يأس شديد. فدائماً، في مثل هذه الحال، كان ينبري لحمل العَلَم والسير في مقدّمة الصفوف واحد من المجموع يجد في نفسه القدرة على ركوب المركب الخشن وتجشّم عبء المهمّة الصعبة، فتنقاد إليه المسؤولية طوعاً وتحصل مبايعته تلقائيّاً دون أن تكتنف العمليّة الملابسات التقليديّة من منافسة وتأييد واعتراض.

لكلّ ظرف رجاله، كما أنّ لكلّ عهد رجاله، ولكلّ عصر رجاله. والظرف الذي مرّ ويمرّ به لبنان في المرحلة الحاضرة من تاريخه ظرف غير عاديّ ويتطلّب رجلاً يصحّ نعته بأنه رجل الساعة لمواجهته، لأن أقلّ معالجة له بالأساليب العاديّة قد تُفسح في المجال أمام تسديد الضربة

القاضية للبلد الذي وصلت به الأمور الى المفترق الحاسم، ولا سبيل الى إنقاذه بغير عزيمة حديديّة تعصف في بعض النفوس ولا يشبهها غير تلك العزيمة التي يُروى أنّها إذا توفّرت للكسيح أعادته الى النهوض والسير على قدَميه.

وليس من نوع المديح المألوف القول بأنّ بشير الجميّل كان الرجل الاستثنائي الذي جاء بحجم المرحلة وعلى قياسها، وان رفاقه ومواطنيه آنسوا فيه وجود صفات غير عاديّة لمواجهة ظروف غير عاديّة، فاندفع من ذاته ودفعوه هم الى فوهة المدفع، الى المحرقة التي هي المهمّة القياديّة ألتي يتولّاها والتي كلّفته راحته وأمنه وفلذة كبده، وقد تكلّفه، خصوصاً بعد أن أصبح في المركز الأوّل في الدولة والمسؤول عن توجيه سياستها، المزيد مما لا يأبه له ولا يسأل متى تنزل به نوازله وعواديه.

في كتاب عن الجنرال ديغول ألّفه جان كرَيستيان بتيفيس هذه الفقرة: « **وعى الجنرال ديغول كونه صاحب شخصيّة فريدة ذات بُعد تاريخي** ». أفليس مثل هذا الإحساس هو الذي يدفع بصاحبه الى مكان الطليعة ويجعله أن يُقبل على خوض الصّعاب، والارتماء في المهاوي العميقة، وقطف الأشواك بيديه، وتقبيل شفاه النار ووجناتها حين الكلّ يرتدّ عن اقتحام هذه المهالك ؟

وقد وصف صاحب هذا الكتاب عن ديغول الموهبة الخاصّة التي يتمتّع بها الجنرال من هذا القبيل بقوله : « **إنه ذو شخصيّة لدنيّة** : (**Charismatique**)، أي إنه رجل العناية المرسل لإنقاذ فرنسا

في أحرج ساعاتها، كما نجد في كلّ أمّة، في منعطفاتها التاريخيّة، مثل هذا الرجل الذي ينبت من أرض بلاده، وكأنّه مبعوث إليها من السماء.

أيّ من هذه الصفات، دون مجاملة ولا مداهنة، لا ينطبق على بشير الجميّل ؟ نزوله الى الساحة لمتابعة المقاومة، وليرمز الى أنّها ما زالت موجودة وقائمة، حين كانت النظرة « الواقعيّة » الى الأمور تحدو بالجميع الى إيجاد مخرج من الأزمة ولو بثمن من تساهل وتنازلات ؟

مخاطبته الجميع، خصوصاً الخصوم الأقوياء، مخاطبة الندّ للندّ، أو حتى بلهجة من كانت له هو الغلبة والنصر ؟

لا نذكر أنّ رجلاً قبله استطاع أن يفعل ذلك غير ديغول الذي، حين كان مركز حكومته المؤقّتة في لندن ويعتمد كلّ الاعتماد على حلفائه الانكليز في متابعته للحرب ضدّ العدوّ المشترك، ظلّ يتعامل معهم لا من موقع اللاجيء إليهم والمستنجد بهم، بل من موقع القيّم على تراث أمّة عظيمة، هذه العظمة التي يأبى الاعتراف بأنّ فرنسا قد فقدتها.

بهذه الروح استطاع بشير الجميّل أن يستنهض الهمم ويبعث إرادة المقاومة حتى في نفوس الحملان الوديعة، مضرماً فيها لهب الثورة على الأمر الواقع. وكم من فتىً طريّ العود كان الحرير يجرح ملامسه، وخطرات النسيم تُدمي خدَّيه، انقلب، بفعل هذه الروح، كتلة متأججة من الحماسة والجرأة التي لا تهاب الموت، وراح مستأسداً يخوض

الغمرات ولسان حاله يقول: « **ما أرخص ما نقدّم لهذا الوطن: يدٌ تُقتطع منّا، أو عين تُقتلَع، أو رجل نتركها على الطريق .. أو حياة نبذلها. وليت كان لدينا ما هو أغلى وأجدى نفعاً للبنان** ».

إن لم تكن هذه صفات القائد الحقيقي فما عساها هذه الصفات أن تكون ؟

وإن لم تكن الروح التي تنبعث من رجل فرد لتَشيع في شعب بأسره هي روح هذا القائد فأين يكمن، إذاً، سرّ الشخصيّة القياديّة ؟

وإن لم تكن القدرة على التوحّد مع قضيّة وطن هي ميزة من الميزات الجوهريّة للقيادة فأين نجد هذه الميزات ؟

إنَّ غداً يُكتب فيه تاريخ هذه الفترة من عمر لبنان سيختصر صورتها بقوله: جحافل الشّر ارتدّت عن لبنان بفعل اثنين : مقاومة شعب لم يستسلم على مرّ العصور، وشخص واجهها بقبضة يد وقوّة قلب وشمخة جبين هو الشيخ بشير الجميّل. وإن احدى صفحات هذا التاريخ قد كتبها حتى الآن بشير الجميّل كرمز للمقاومة اللبنانيّة، وسيكملها غداً كرئيس منقذ للجمهورية.

نعم، التاريخ اللبناني المعاصر سيكتبه المؤرّخون غداً بالحبر على الأوراق، لكنّ بشير الجميّل كتبه بدم الشهادة على الأرض، ولن يفعل المؤرّخون سوى أن ينقلوا هذه الصفحات المكتوبة بالأحمر القاني على التربة اللبنانية الى كتبهم وأوراقهم .

شخصيّة بشير الجميّل

١

يُشكّل بشير الجميّل طرازاً فريداً بين جميع الذين تعاطوا الشأن العام في لبنان. ولا عجب .. فهو ليس « سياسيّاً » بالمعنى المألوف لهذه الكلمة، معنى ممارسة « فنّ الممكن » حسب التعريف المتداول للسياسة، بما يتضمّن ذلك من لفّ ودوران وحفظ خطّ رجعة و « تكويع » وإعطاء تنازلات. هذه أشياء غير واردة في قاموس بشير الجميّل: شعرة معاوية يقطعها ولا يخاف، ولا يتزحزح أبداً عن موقفه ومطلبه ولو قامت الدنيا وقعدت، ولو هُدّد بالقوة أو تكاثرت عليه الضغوط. فالتساهل في المبدأ لا وجود له عنده، واللّين على حساب الحق الوطني لا يبرّره عدم تكافؤ القوى أو عدم مؤاتاة الظروف أو أيّ اعتبار من الاعتبارات التي قد يجد فيها غيره أعذاراً داعية الى « التفاهم » أو إلى « معالجة الأمور بالتي هي أحسن ». إنّ اليد التي لا يقوى عليها لا يدعو عليها بالكسر بل يصمد للكماتها حتى يؤلمها اللكم فتتحطّم. والتضحيات مهما غَلَت لا تجعله يتراجع، فإنقاذ الوطن في عرفه ليس في

توفير أبنية وأرواح، بل بمنع العدوّ من إيقاع هذا الوطن في المصير الذي أعدّه له، وما عدا ذلك فكلّ ثمن بخس ورخيص.

أمتطرّف هو ؟ هكذا يقول من يبتغي نعتاً سهلاً ينعته به؛ لكنّ هذا « التطرّف » في الحقيقة هل يعني غير التمسّك الى النهاية بكلّ ما توجبه القضيّة العادلة التي يدافع عنها ؟ هل يعني غير عدم التفريط بأرض بلاده أو بشبر منها انطلاقاً من فكرة أنّ أحداً لا يملك ان يتبرّع من جيب الوطن ؟

إنّ لبنان، في المحنة الملمّة به، كان ضحية التنازلات التدريجيّة التي قدّمها السياسيّون التقليديّون منذ مطلع الاستقلال الى اليوم. ولو وقف أولو الأمر والسياسيّون، في مختلف العهود التي توالت منذ ذلك الحين، المواقف الصلبة الثابتة التي شهدناها من بشير الجميّل، لما وصل لبنان الى ما وصل اليه ولو كلّفته هذه المواقف بعض الضرر يُصيبه منها ولا يُوازي، بأيّة حال، الضرر الذي لحق به من جرّاء عدم وقوفها.

فكم كان مقدار الضرر الذي ينال القضيّة الوطنية لو لم تقاوم زحلة، كما قبلها الأشرفية وغيرهما، المقاومة البطوليّة المستميتة .. تاركةً جيش الاحتلال يُسيطر عليها لِيغدو موقعها الاستراتيجي في خدمة أعداء لبنان بدلاً من أن يكون في خدمة المدافعين عنه، ولتُقتَطع من رقعة الأراضي اللبنانيّة المحرّرة هذه المدينة الكبيرة والبالغة الأهمية بين مدن البلاد، بحيث يعني سقوطها الشيء الكثير بالنسبة الى مصير حركة المقاومة اللبنانية ؟

وإذا كان الخاسر ماديّاً في معركة زحلة هو الجانب اللبناني باعتبار الدمار الذي لحقها، والبوار الذي حلّ بمواسمها والأرواح التي أُزهقت فيها، فإنّ الخاسر عسكريّاً وسياسيّاً كان المعتدي الذي لم يستطع دخول المدينة وإخضاعها، بل ارتدّ عنها وخرج منها مقاتلوها بموكب كمواكب الأعراس، إذ انّ « **مجداً جديداً ينتظرهم في مكان آخر** » كما قال لهم قائدهم.

ومثل معركة زحلة، كانت معركة الأشرفية وضواحي بيروت الشرقيّة في العامين ١٩٧٨ و ١٩٨١، إذ دفعت هذه المناطق ثمناً غالياً لصمودها وهي التي انفتحت عليها أبواب الجحيم مجسّدة بالراجمات وأفواه المدافع ... لكنّ النتيجة أسفرت عن انسحاب المعتدين من المواقع التي كانوا فيها بدلاً من تقدّمهم الى مواقع جديدة، فانهار حُلُم الحسم العسكري لدى أصحابه، ومعه فكرة الهيمنة على لبنان كلّه ولعب الورقة اللبنانية كاملة.

وهكذا كان عناد بشير الجميل وإصراره على موقفه حتى النهاية ينتزعان النصر من قلب الموت والخراب، ويردّان العدوّ على أعقابه حين كانت قد خيّلت له قوّته الغاشمة وتفوّقه العددي أنه سيسحق القلّة المكابرة الواقفة في وجهه في غضون أيام أو ساعات.

فضل النشأة البيتيّة

هذا النَمَط من السلوك والتصرف، الذي لا يعرف التعرّج،

والالتواء، والسير في الطرق اللولبيّة، وارتداء الأقنعة وإظهار غير ما في الباطن مردّه الى كون بشير الجميّل لم ينشأ في بيت سياسي محترف، بل في بيت رجل عقيدة نادى بها منذ تأسيسه حزبه في العام ١٩٣٦ وما زال سائراً على روحها وجوهرها اليوم بعد ستّ واربعين سنة من ذلك التاريخ.. دون أن يطرأ عليها تعديل أو يسجّل الحزب أيّ تساهل بشأنها أو أيّ استعداد للبحث في موضوع ما على أساس يختلف عنها أي اختلاف.

لقد كان حزب الكتائب يأنف من خوض المعترك السياسي في بداية أمره، ثمّ قرّر ولوج هذا الباب عبر النيابة والوزارة لتطعيم الحكم والتمثيل الشعبي بعقائديّين، وحتى تصبح الحياة السياسيّة في لبنان في أيدي الأحزاب المنظّمة ذات البرامج لا في أيدي الأفراد من زعماء مناطق او رجال مال، او في أيدي الكتل التي تتألّف.. وتتعدّل وتنفرط تبعاً للحاجة والظروف، والتي تختلف مواقفها من حين الى حين تبعاً لإرضاء أعضائها او عدم إرضائهم، ويحصل الانضمام إليها او الانسحاب منها تبعاً للفائدة من ذلك.

وبدخول نوّاب من حزب الكتائب الى ندوة الشعب أصبحت المعارضة والموالاة، لأول مرة في تاريخ لبنان الحديث، تقومان على أساس مبدئيّ لا على أساس الاشتراك في الحكم او عدمه، او على أساس نيل الحصّة من المنافع او الحرمان منها.

وهكذا جمعت الكتائب بين كونها حزباً عقائدياً وصفة الحزب

السياسي.. بعد أن أصبح لها مرشّحون في الانتخابات ثم نواب في المجلس ووزراء في الحكم. إلا أنها لم تمارس السياسة يوماً بمفهومها الشائع الذي قيل عنها بسببه أنها ما دخلت شيئاً إلا أفسدته. لذا اشتهرت الكتائب، طوال مدة تعاطيها بالشأن العام، بكونها تسبح عكس التيار، وبأنها، خلاف المتَّبع والمألوف في هذا الميدان، لا تفعل فيها المغريات. وهذا هو تفسير « عقبة الكتائب » التي كانت تتحدّث عنها الصحف ويُحكى عنها في المجالس كلّما كان هناك تشكيل لحكومة او مناسبة توجب اتفاقاً على شيء، لأنّ جميع الكتل والهيئات، فضلاً عن الأشخاص، كان يمكن « إقناعها » وتظلّ الكتائب وحدها متصلّبة في موقفها لا تقبل حلّ المسألة إلّا على أساس وطنيّ لا غبار عليه.

في هذا الجوّ نشأ بشير الجميّل عائليّاً وحزبيّاً، فلم يعرف، فيما انطبع به من عقليّة وتشرَّبه من مفاهيم، شيئاً اسمه المساومة، ولم يألف طريقة طلب الكثير للحصول على القليل، و « إبقاء مطرح للصلح »، و « إرادة ما يكون إن لم يكن ما نريد »، الى آخر هذه السلسلة من أساليب التعامل التي توصف بأنها « خلاصة الحكمة » و « حصيلة الخبرة في الحياة ».

وإذا به، عندما أطلّ على المسرح العام، يحمل معه من محيطه العائلي، ومن المدرسة الكتائبية التي تتلمذ فيها، صراحةً لا تعرف المواربة، وثباتاً على الموقف دون أيّ تراجع او حياد عنه، وعدم تغليف للكلام

بالتعابير الدبلوماسية بل جرأة في المواجهة بالحقيقة مهما كانت لاذعة او جارحة.

إنه يُفضي بما يريد منذِ الوهلة الأولى، ومهما جُلت معه بعد ذلك تجد أنّه ما زال عند أوّل كلمة تلفَّظ بها. فهو ينتهي كما بدأ، وهذه ليست شيمة الكثيرين من العاملين في مثل حقله. وهو لا يعود من منتصف الطريق في مسيرة ينتهجها مهما لقي أمامه من موانع.. ومهما صادف من حجارة وأشواك.

عن نفسه قال : « **أنا عفوي جداً، صريح جداً، حاسم جداً** »، وعنه قيل إنّه « مندفع جريء، ورجل القرار والتنفيذ، وقد اتخذ طوال ممارساته السياسية القرارات المناسبة لمعالجة أحداث صعبة. وهو مدرك وواقعيّ، يرفض المساومات وأنصاف الحلول، لكنه منفتح على الحوار، لا يخشى النقد ».

وبشير الجميل عنيف في تطبيقه لهذه القواعد في سلوكه، لكنه عنفُ صاحب الحق الذي يأبى تضحية به او تنازلاً، كلّيّاً او جزئيّاً، عنه لمجرّد أن المتعدّي عليه يتمتّع بالقوة ولا يتورّع عن استخدامها لتحقيق مآربه. هنا يصول بشير الجميل وينتفض، وينقلب المحامي الشاب جنديّاً بين ليلة وضحاها، متخلّياً عن دفاعه عن الحقوق الفرديّة ليتولّى الدفاع عن الحق الذي يتقدّمها جميعاً، حق الوطن، فيُتقن صناعته هذه الجديدة كما لم يُتقنها مَن تخصّصوا بها وتكرّسوا لها. والدافع ليس هواية حمل السلاح، بل الشعور بداعي الواجب حين ألحَّ الوطن بندائه. فكان

مُستجاباً على يد بشير الجميّل وأمثاله.

هذا النَمَط الشخصيّ الذي تفرّد به بشير الجميّل، فكان، بفضله، ظاهرة خاصّة في العملَين السياسي والنضالي في لبنان، هذا النَمَط الصادر عن طبيعة وتربية وليس نهجاً تكتيكيّاً قابلاً لانتهاج عكسه إذا ما دعت المصلحة والظروف، يدعونا الى تحليل شخصيّة هذا القائد والعوامل التي كوَّنتها أو أثّرت فيها، زيادة في توضيح صورته لدى اللبنانيّين، وتزويداً للتاريخ بالحقيقة الصرف حول رجل استثنائي وجد في ظروف استثنائيّة.

وأول ما ينكشف لنا، في هذا المجال، من مراجعة سيرة بشير الجميّل في عهد فتوّته، زمن الدراسة، أنّه كان، في النطاق الطلّابي، ما هو اليوم في النطاق اللبناني. هو هو لا راح ولا جاء: يقف بقوّة في وجه التيارات اليساريّة الهدّامة والمتطلعة الى خارج الحدود، ولا يتهيّب التصدّي لها في الحرم المدرسيّ أو الجامعيّ والشارع على السواء، مكوكباً حوله الطلّاب الذين لم تُعكّر العقائد المستوردة صفاءلبنانيّتهم، فأثبت بموقفه هذا رسوخ الفكرة اللبنانيّة لدى شبيبة الوطن، في وقت بدت فيه الاتجاهات « التقدّميّة » والنزعات القومية الوحدويّة عند بعضهم كأنها « موضة العصر »، ومن يخالفها فهو رجعيّ ضيّق الأفق ووارث لمفاهيم إقليميّة وطائفيّة بالية تخطّاها الزمن.

وقد بلغ من عنف مواجهة بشير الجميّل للحركات الصادرة عن

الاتجاهات الغريبة أن اشتهر في البلد كزعيم لفئة « شرسة » من الطلّاب .. مصمّمة على ألّا تدع موجة الشيوعيّة وموجة العروبة وموجة القوميّة السوريّة تجرف أحداً من الوسط الطلّابي اللبنانيّ وتجعل الجيل الجديد لهذا الوطن يذهب ضحيّة الأفكار الخادعة، متخلّياً عن لبنانيّته لِيَدين بمذاهب وآراء يكتشف زيفها وبطلانها وخطرها بعد فوات الأوان.

ويُقال ان والده الشيخ بيار الجميّل، لمّا رأى ما رأى من نجله الأصغر، التفت إليه وقال: «**ماذا أفعل بك ؟ طالع على أبيك في صغره** ». وهذه العبارة تُلقي ضوءاً على الناحية الوراثيّة في مسلك بشير الجميّل، دالّة على أنّ النزعة الوطنيّة لدى الأب والإبن نزعة مشبوبة تدفعهما، في سنّ الشباب، الى المواقف القصوى، ثمّ هي تَظلّ على عمق وطنيّتها في سن ما بعد الشباب وإنّما تُفسح الحدّة والشدّة في المجال، عند ذاك، أمام طول الأناة والصبر والاستعداد للأخذ والعطاء .. سعياً وراء الهدف ذاته الذي لا يتغيّر من حروفه حرف على الإطلاق.

عناصر شخصيته

مروراً على هذا يتراءى لنا العنصران اللذان تتكوّن منهما شخصيّة القائد الشاب .. وهما الوطنيّة العارمة والشدّة في التعامل مع أصحاب النيات غير السليمة تجاه لبنان. فبشير الجميّل أراد أن يمحو أسطورة الضعف اللبناني، أسطورة قوّة لبنان الكامنة في ضعفه، لأنّ الأرض التي أنجبت هنيبعل وفخر الدين ويوسف كرم، وقاومت الاسكندر ومعاوية

وابراهيم باشا، ليست أرضاً لا يُحسن أبناؤها القتال دفاعاً عنها. وقد أثبت بشير الجميّل بالبرهان الحسّيّ قيمة المقاتل اللبناني الذي شهد له العالم بأنّه جلّى في القتال الى درجة الإبداع.

وهكذا فكما جابه بشير الجميّل في صباه الطلّاب الموالين لغير لبنان بوقفات عنيفة في وجههم، جابه أعداء لبنان الداخليين والخارجيين في الأحداث الحاضرة بالعنف الأشدّ، وتوصّل الى نتيجة مزدوجة هي، أوّلاً، إجبار القوى العظمى في العالم على تغيير مخطّطها الرامي الى اقتلاع المسيحيين من لبنان لتقديمه وطناً بديلاً للفلسطينيين، وهذا ما أصبح معروفاً وليس مجرّد إدعاء؛ وثانياً تخييب أمل الذين كانوا يتوهّمون بأنّ في وسعهم إخضاع اللبنانيين بسهولة، حتى اعترف وزير خارجية سوريا السيد عبد الحليم خدّام، عندما كان مرّة في قصر بعبدا لحضور اجتماع للجنة المتابعة العربيّة، بأنّ الحسم العسكري متعذّر على أيّ فريق في لبنان. وإذا كان تصريح الوزير السوري هذا، يعني أنّ أيّاً من الفرقاء لا يستطيع أن يحسم عسكريّاً على الساحة اللبنانيّة إلّا أن المغزى الكبير لكلامه هو أنّ المعركة التي تخوضها في لبنان دولة قويّة عسكريّاً كسوريا، والمقاومة الفلسطينية المحتشدة بكامل قواها في لبنان، ودولة عربيّة قويّة وغنيّة كليبيا تمدّ هذا الفريق بالمال والسلاح والرجال بدون حساب، كلّ هذه القوى، مع ما تتمتّع به من دعم دوليّ، لا تستطيع أن تقضي على مقاومة فريق صغير معتصم في قطعة بقيت له من لبنان لا تتجاوز العشرين بالمئة من مساحته ولا يحظى بدعم من أحد.

والى جانب العنصرَين المكوِّنَين لشخصيّة بشير الجميّل اللذين ذكرناهما هناك عنصر ثالث هو عنصر التحرّر من طابع الحياة الخاصّة (Vie privée) ، الحيـــاة الفرديّـــة و العائليّـــة ، لاكتساب طابـــع « الرجل العام » (Homme public). وقد يُقال هنا ان جميع رجال السياسة والعاملين في المجال العام تنطبق عليهم هذه الصفة الأخيرة، إلّا أنّ هؤلاء يُزاوجون، في الواقع، ما بين الحياة الخاصّة والحياة العامّة. أمّا بشير الجميّل فبالرغم من أنّه زوج وأب لم يترك زاوية في حياته للأسرة والبيت، بل تزوّج، في الحقيقة، قضيّة عقد ما بينها وبينه في ارتباط أبديّ، واستطاع أن يسمو حتى في مشاعره على كلّ ما هو شخصيّ ليُعانق الأسرة اللبنانية الشاملة والبيت اللبناني الأوسع. فغدا كلّ شهيد ذهب فداء القضيّة التي نذر نفسه لها بمثابة ابنته « مايا »، وغدت الطعنة التي تُصيبه في صميمه هي تلك الموجَّهة لا الى كبده بل الى كبد الوطن: « **أعدكم بأنّي سأغفر لمن أساء إليّ شخصيّاً، لكنّنا لن نغفر معاً لمن أساء الى الوطن** ».

ومن يحسب أنّ ثمّة مغالاة في هذا الكلام فليحاول أن يتصوّر بشير الجميّل يصطحب عائلته الى فيلم سينمائي، أو يقوم بتدريس أولاده في المنزل، أو يتحلّق وإيّاهم حول شاشة التلفزيون، أو يرافقهم في نزهة أو رحلة .. ليلمس كم يصعب عليه هضم هذا التصوّر ومطابقته على الواقع.

هل في ذلك ابتعاد عن الروح الإنسانيّة ؟لا بل إنّ فيه إنسانيّة

أعمق وأعـمّ تقوم على الشعور بالقربى القريبة مع كلّ شريك له بالانتماء الى لبنان، وعلى الخروج من دائرة العائلة الصغرى لاحتواء عائلة كبرى، هي عائلة الوطن، في القلب والضمير، والتجرّد من عوامل النفس العاديّة للتحرّك بعوامل الانسان غير العاديّ، الإنسان الشمولي في لبنانيّته، الذي يضمّ ذراعيه فيخاصر بإحداهما مجرى نهر الحاصباني وبالثانية مجرى النهر الكبير.

كيف ؟ وهل يصحّ في الأرز أن يُسمّى أرز بشرّي أو الشمال أم أرز لبنان ؟ وهل شاعرا « قدموس » و « على بساط الريح » هما شاعرا جارة الوادي أم شاعرا وطن النجوم ؟ وهل الأوزاعي بعلبكيّ، وشربل مخلوف بقاعكفريّ والسيّد التنوخي من عبيه أم هم قدّيسو لبنان وأولياؤه ؟. هذا هو قياس الرموز الوطنيّة: الشعراء والقدّيسين، وهذا هو قياس الأبطال.

أثر الوالد

وهذا الانسلاخ عن كلّ شيء للتوحّد مع لبنان له جذوره أيضاً في مشاعر الوالد الذي نشأ الإبن على خطاه وحفظ على يديه مبادىء المدرسة الكتائبيّة. فقد حدث مرّة، كما روت احدى الصحف في حينه، أنه جاء وفد من بكفيا الى الشيخ بيار الجميل ـــ وكان لم يصل الى النيابة والحكم بعد ـــ يطلب منه الاهتمام بملاحقة مصالح البلدة في الدوائر الحكوميّة والسعي لتأمين الخدمات الضروريّة لها .. على اعتبار أنّه

ابن هذه البلدة، لكنّ الشيخ بيار اعتذر لأعضاء الوفد عن التحرك على هذا الأساس قائلاً: « **لبنان هو بلدتي** ».

وبالفعل من سمع الشيخ بيار يوماً، في تصريحاته ومواقفه النيابية، يُطالب بحاجات بلدته أو يشكو الإجحاف اللّاحق بها كما هو المعهود من النواب والزعماء؟ ومن سمعه يتكلّم مرة عن المتن أو عن محافظة الجبل مثلاً ؟ فاهتمام بيار الجميّل انصبّ على لبنان أوّلاً وآخراً، ولم يعمل في أيّة مرحلة من حياته على مستوى أدنى من المستوى الوطني أو يشعر بانتمائه الى قرية أو محلّة أو منطقة، بل يكاد أن يضع على بطاقة هويّته: « محلّ الولادة: لبنان، ومحلّ الإقامة: لبنان ».

وهذا الشعور بالانتماء المباشر الى الوطن، لا عبر الانتماء الى بقعة من بقاعه، ورثه بشير الجميّل فيما ورثه عن الوالد المؤسّس وواضع فكر المدرسة الكتائبيّة، فكان أيضاً من العناصر الداخلة في تركيب شخصيّته التي حلّت فيها العصبيّة الوطنيّة محلّ ما يُسمّى تقليديّاً بعصبيّة «الحارة» في المجتمع اللبناني.

التراث العائلي

لكنّ هذه الجذور الوراثيّة تضرب فيما هو أبعد من تربة الوالد القريبة لتصل الى الجيل السابق له في العائلة : الى الجدّ وأخيه. وهنا لا بدّ من العودة الى الماضي في لمحة تاريخيّة، فقد رافق مجيء عصر النهضة

الحديثة الذي تلا عصر الانحطاط في الشرق يقظة ما سُمّي بالقوميّة العربيّة التي دان بفكرتها عدد قليل من رجالات الفكر والقلم في لبنان من المسيحيّين أنفسهم، فعملوا في سبيلها بكتاباتهم وجهودهم ومساعيهم سواء في الوطن او في مصر والمهجر، وكان أبرز هؤلاء أمين الريحاني، واسعد داغر، وابو الفضل الوليد (الياس عبد الله طعمه). وفي مقابلهم، وفي لبنان ومصر والمهجر أيضاً، كان هناك العاملون من اجل استقلال لبنان عن السلطنة العثمانيّة، وعن جواره ومحيطه، بشخصيّته المتميّزة وكيانه الخاصّ. وهكذا بينما مات لبنانيون على أعواد المشانق في الحرب العالميّة الأولى من أجل «اللّامركزيّة» التي كانت تعني يومذاك الاستقلال الذاتي للأمصار العربيّة داخل السلطنة العثمانيّة، ومن بين هؤلاء الشهداء : عبد الغني العريسي، وعمر حمد، والأمير عارف الشهابي، وأمين لطفي، والشيخ احمد طبّاره، وتوفيق البساط، مات آخرون من أجل استقلال «جبل لبنان» الكامل وعدم اندماجه بأيّة وحدة أو اتحاد، ومنهم : سعيد عقل، وفيليب وفريد الخازن، والاب يوسف الحايك، ويوسف الهاني. أمّا الذين قُيِّض لهم أن يعيشوا لِيُنادوا بالفكرة اللبنانية الصرف، في مقابل المنادين بالفكرة العربيّة، فكان أبرزهم : داوود بركات رئيس تحرير جريدة «الأهرام» في مصر، والمحامي يوسف السودا، وشارل قرم، وبولس نجيم (جوبلان) ويوسف وأمين الجميّل، أي عمّ الشيخ بيار الجميّل ووالده. فقد كان الصيدلي يوسف والطبيب أمين، الذي غلب عليه لقب « الحكيم امين الجميّل »، شخصيّتين لم يُغفَل اسمهما يوماً عند تعداد رجالات تلك

الحقبة من العاملين في سبيل القضية اللبنانية، ممّا يجعلنا نفهم كيف تحدّرت الفكرة من الجدّ الى الأب الى الحفيدين امين وبشير، وكيف هي متأصّلة في هذا البيت وموروثة.. تنتقل من جيل من ابنائه الى جيل مع الدم والحليب.

هذا فضلاً عن الشيخ موريس الجميل خال الشيخ بشير، الذي كان الدماغ الإنساني المفكّر والمبدع الخلّاق في وضع التصاميم الإنمائية لمشاريع بناء الدولة العصريّة المتطوّرة لتُجاري الدول المتقدّمة والراقية في شتّى المجالات الاقتصادية والعمرانيّة والعلميّة والثقافيّة... ولعلّ تطلّعات الشيخ بشير المستقبليّة ستكون تنفيذاً لهذه المشاريع بحيث تتحقّق النهضة الإنمائية الشاملة من اجل ازدهار الوطن وخير الشعب.

له الكلمة وفي يده الزمام

انسجاماً مع هذه الطبيعة الشخصية[1] المتميّزة بالصراحة المتناهية، والعنف والعناد في موضع الحق .. وعدم اعتماد الأسلوب الدبلوماسي في الكلام، نرى خطب الشيخ بشير الجميل وتصريحاته تجسّد هذه الروح، فلا تُداجي، ولا تُراعي ولا تُلمح الى شيء تُبْطنه بل تقوله بملء الفم، تُسمّي الأشياء بأسمائها، تضع النقاط على الحروف، تحكي من فوق المنابر ما يقوله الناس همساً، وبخوف، في مجالسهم الخاصّة او في قرارة ضمائرهم. وهذا ما دفع موسوعة « اونيفرساليس » العالمية الى أن تذكر، في سياق نبذتها عنه، أنه « **يُعلن امام الجميع كلّ ما يقوله اللبنانيون سرّاً** ». ولأول مرّة، على يده، يكتسب الكلام السياسي مثل هذه اللهجة المكشوفة، العادية، غير المغلّفة بأساليب التمويه واللعب على الألفاظ :

« **ــ مئة الف قتيل كانوا ضحيّة الصيغة؛ إنها ليست الإطار الصحيح لتوافق اللبنانيين.**

ـــ قانون الدفاع كارثة جديدة خُلقت في بناء الجيش، فضلاً عن أنه لا قضيّة له يُحارب من أجلها.

ـــ الحزب الذي استعاد لبنان من فم المؤامرات لا يستطيع أن يُسلّم البلاد الى من يمكن أن يُعيدها الى الوراء.

ـــ لا يُمكن أن نقبل، ولا يقبل شهداؤنا، ان نرجع الى وطن مبنيّ على زيف وكذب شأنه في الماضي ».

استقامة في السلوك السياسي لا يملك ان يحيد عنها لأنه مجبول بها أو مقدود منها، وقد حدّد نهجه بنفسه في إحدى خطبه قائلاً :

« تعوَّدنا أن نعلن كلّ ما نريد ونسلك الطريق القويمة الى الهدف الواضح الذي نقصد، ونأبى أبداً ان نعتمد الأساليب الملتوية ونبقى كمن يفتّش عن الظهر عند الأصيل.

ذلك أنّ أعمالنا ما كانت ولن تكون مصدر خجل او مبعث شكّ وتحايل على الحقائق والناس ».

وكما يهوي، بكلام كالسيف القاطع، على التخاذل الداخلي يهوي بمثله على العابرين من الخارج إلى أغراضهم ومراميهم على الجسر اللبناني :

« ـــ نحن لا نزال رهن اللعبة الدولية والنزوات الفلسطينيّة والشهوات العربيّة. لا نريد ان نكون ضحيّة الوفاق الدولي والتناقض العربي والانقسام الفلسطيني، ولا نريد أن تُرسم

أشكال التسويات وتقاسيمها على جسدنا وخريطتنا وشعبنا.

ــ لن نُعطي أيّ ثمن سياسي او عسكري لأي انسحاب سوري من لبنان. دفعنا الثمن في العام ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦، ودفعناه في صيف ١٩٧٨ .. وفي نيسان وأيّار وحزيران من العام ١٩٨١. يجب ان ينسحب السوري من دون أيّ شرط.

ــ قضيّتهم (القضيّة الفلسطينيّة) ماعت وأصبحت من فرط غبائهم مجرّد شعار يُسقط حاكماً ويُنصِّب آخر، ويُحوّل « القضيّة العربيّة الأولى » الى « طموح » متواضع يتنقّل بين ثلوج صنّين وسواحل جونيه ».

هذه النماذج التي أوردناها من أقواله تُلقي مزيداً من الضوء على شخصيّته التي لا تُشبه أحداً، المتفرّدة بمزايا جعلت صاحبها يبرز بشكل خاصّ لدى الرأي العام اللبناني والعالمي. فبشير الجميّل غدا في لبنان المرجع في المنطقة المحرّرة التي اصطُلح على تسميتها بالمنطقة الشرقية، وغدا بعد أن رفعه اللبنانيون الأصفياء الى سدّة الرئاسة المرجع في لبنان كله ليكون من هذا الموقع، كما كان من موقعه السابق، الصخرة التي تتحطم عليها المكائد المستهدفة لبنان. إنّه المرجع لا بالمقام الأوّل الذي يتبوّأه فحسب، بل وبوجوده الذي أثبته بقوّة، وبالمزايا التي ذكرناها وبالشجاعة التي يتحلّى بها والتي دفعته الى التحدّي والصمود في وجه القوى الغاشمة صمود الذي لا خيار له غير المقاومة والدفاع عن النفس.

وهكذا وجدنا ان القوى المتعدّدة التي كان في يدها الحلّ والربط في الطرف الآخر قابلها محاور واحد في المنطقة المحرّرة هو « الجبهة اللبنانية » وجناحها العسكري الذي هو « القوات اللبنانية ». ويعود الفضل في هذا التوحيد الى بشير الجميّل. فهو باسم قواته من كان يقول : « نعم » ومن كان يقول : « لا ». وهو الذي قرّر القضاء على صيغة ١٩٤٣ التي بُني عليها لبنان الاستقلال، ودفنها والانتهاء منها، فقُضي عليها ودُفنت رغم استمرار التمسّك والإشادة بها من جانب أقرب الناس إليه :

« **شاركت شخصياً في قتل الصيغة السابقة، وطعنتها بخنجر في صدرها ودفنتها** ».

وهو الذي طرح مبادرة لحلّ الأزمة اللبنانية، فلَقِيَت صدىً عند جميع الجهات صديقةً له او عدوّة، حتى لم يبقَ شخص له وزنه لم يُعلّق عليها، ومعظمها تعليقات إيجابيّة. وهذا هو مِصداق القيمة الحقيقيّة للرجال، فَـ « الرجل الرجل هو من تكون معه او ضدّه .. ولكنّك بحال من الأحوال لا تستطيع أن تتجاهله ».

وبشير الجميل كذلك هو الذي قرّر فرض الأمن في منطقته وإلغاء حالة الفوضى، ففرض الأمن بعمل حاسم، وعمّت الطمأنينة وساد القانون، بينما تعذّر على الجيوش النظاميّة والجحافل الجرّارة في المنطقة الغربيّة أن تفرض الأمن المتردّي يوماً عن يوم هناك، حتى وصلت الأمور الى حدّ نسف السفارات ووضع المتفجرّات الهائلة بشكل شبه يوميّ، واشتباك الأحزاب والتنظيمات بعضها مع البعض.

ولا يتهيّب الشيخ بشير أيّ اعتبار قائم عندما يُقرّر شيئاً. فعندما بقيت، بعد السابع من تموز، بعض جيوب الخارجين على القانون وفلولهم، والمنتفعين على حساب شرف القتال وشرف القضيّة مستفيدين من وجودهم خارج مناطق سيطرة القوات اللبنانية، لم يتقاعس قائد هذه القوات عن مدّ ذراعه الى حيث هم وإراحة المواطنين من تعدّياتهم وتجاوزاتهم، رغم جميع التفسيرات المغرضة التي أُعطيت لهذه الحركة من ضرب الجيش وتطاول على الشرعية وتهديد أمن الفلسطينيين المجاورين وغير ذلك.

رجل، باعتراف أخصامه، له الكلمة الفصل في الجانب الذي يُمثّله، حتى وجدت لجنة المتابعة العربية التي انعقدت على أثر أحداث زحلة وبيروت في منتصف العام الماضي أن لا بدّ من دعوته شخصيّاً والتفاهم معه، وحتى قال أحد كبار الفريق الآخر، في معرض إحراج الشيخ بشير وتحميله المسؤولية، ان الكلمة أصبحت في يد الشيخ بشير الجميل، فهو الذي يملك أن يُنقذ لبنان، وهو الذي يملك أن يدمّره. فإذا بالقائل، مهما كانت نيّته من هذا التصريح، يُقرّ بالحقيقة.. وهي أنّ كلمة اللبنانيين ينطقها عنهم بشير الجميل، لأنّ ما يطوف على لسانه هو الذي يجول في أعماقهم.

أجل، فكلام بشير الجميّل ليس كلام العَلَن المختلف عن كلام السرّ، ليس التصريح « الرسمي » المتحفّظ الذي لا يُفصح عمّا في الجنان ولا يُترجم خواطر الوجدان، بل هو التعبير الصادق عن ضمائر

اللبنانيين، يُصوّر الأشياء كما هي، يقذف بالحقيقة في الوجوه لا يُجمّلها بزخرف أو طلاء، يعرض واقع الأمر لا يُحاول التخفيف من وقعه في النفوس، المهمّ لديه توعية اللبنانيين على ما هم فيه وما هم مُقبلون عليه.

يُطرح موضوع الوفاق مثلاً، فيُهلّل له الكثيرون على أنه المخرج من المحنة المستطيلة الدامية، وتبدأ « المشاريع الوفاقيّة » و « اللجان الوفاقيّة » و « الاجتماعات الوفاقيّة ». البعض يغترّ بهذه المحاولات، والبعض الآخر يُدرك أنّ القضيّة طبل أجوف.. ولكنّه يُصفّق مع المصفّقين ويرقص في الحلبة مع الراقصين. وحده بشير الجميّل يفتح الأعين على عقم وفاق يجري بين اللبنانيين في ظلّ الاحتلال لأنه يكون عندئذٍ وفاقاً مفروضاً يُملى إملاءً على الفرقاء .. ليكون لمهندس هذا الوفاق وصاية عن طريقه على البلاد : « **كلّ مشروع وفاق مقترَح ولبنان واقع تحت الاحتلال ليس إلّا محاولة غير مباشرة لفرض الهيمنة عليه** ». فالدجل السياسي شيء لا يعرفه بشير الجميل؛ لذا نراه، في غمرة الأصوات المرتفعة هازجةً بعبارات التملّق والنّفاق، يفوه بالحقيقة الساطعة، يضع الإصبع على الجرح، يقول الأشياء كما هي ولو صدمت الآمال المخدوعة، وخيّبت التفاؤل الذي في غير محلّه.

ومن أجل بيانٍ أوضح لوجه الاختلاف بينه وبين المسار التقليدي للسياسة في هذا البلد نورد هذه الفقرة من حديث له :

« **إنّ إعادة توحيد لبنان تتمّ عن طريق مقاومة المحتلّ بمقاومة واحدة، لا بألاساليب التي ينصحنا بها بعضهم والتي تمرّ عبر المائدة**

الخضراء او ارتشاف القهوة.. او حتى المعانقة ».

ولأن المقاومة الواحدة لم تتحقق لم يمكن رفع نير المحتل باليد اللبنانية بل بيد محتل آخر، ولو لبّى الجميع نداء الشيخ بشير الى هذه المقاومة لما رأينا « المحتل الثالث » بيننا اليوم.

إن حلّ الأمور على الطريقة « اللبنانية » المعروفة بطريقة « تبويس اللّحى »، والذي يُمهَّد له بالدردشة في الصالونات وعلى موائد الّلعب وحول فناجين القهوة، هذا النهج غير الجدّيّ الذي لا يتناول معالجة الشأن بالعمق، والقضاء على الداء بالعلاج الفعّال او بالبَضع والاستئصال، بل يتّجه الى المصالحات العشائريّة و إرضاء الخواطر، لا نجد مَن ثَار عليه، ونَقَضَه بالفعل لا بالقول، غير هذا الرجل ذي الصراحة الفجّة، الذي لا يُمكن أخذه بالعاطفة او « بالخجل » او بمعسول الكلام، بل يصل الى قلبه، والى أعمق أعماقه، من « يحلب صافياً » في العمل لأجل لبنان ولأجل إصلاح حقيقي في لبنان.

مثال آخر : بينما يتغنّى السائرون من اللبنانيين في رِكاب الغريب بجيوشه « التي دخلت لبنان لحماية الثورة الفلسطينية والقوى التقدّمية الوطنية من الهجمة الإمبرياليّة الشرسة » نرى بشير الجميّل لا يتملّق قوّة من القوى، مهما بلغت، على وجه الأرض ولا يدعو اللبنانيين إلّا الى الاعتماد على أنفسهم، غير مشجِّع حتى مقاتليه بالمعهود من « إبر المقوّيات » التي ترفع المعنويّات وتشحذ العزائم، من مثل وجود دعم أجنبيّ كبير لهم ولقضيّتهم، او تدخّل جيوش لنصرتهم، بل يبسط لهم

الواقع بكلّ عريه الجافّ، وهو أنَّ أحداً لا يأتي لنصرة الغير إلّا ويحتاج هذا الغير نصيراً عليه فيما بعد، لأنّ أحداً لا يبذل المساعدة كُرمى لسواد عيون الآخرين بل لتحقيق أهداف له. فيجعل اللبنانيين يَخلصون من كلامه الى أنّ لا اتّكال لهم إلّا على سواعدهم، وأنّ بأظفارهم وحدها عليهم أنْ يحكّوا جِلد لبنان :

ـ « إنَّ أحداً لن يدافع عنّا. ليس هناك من دولة في العالم سترسل شبابها للدفاع عنّا، ولكي يموت رجالها في ساحتنا. وليس هناك جيش سيأتي إلينا للدفاع عن قضيتنا وتحريرنا إلّا وسنضطّر يوماً الى الاشتباك معه للتحرّر منه. ولو قبلنا بأيّ مساعدة ماديّة لكانوا ساعدونا (الأميركيّون) كما ساعدوا فيتنام، وباعونا كما باعوا فيتنام ».

وبالفعل، عندما دخل الجيش الاسرائيلي لبنان، سُئل الشيخ بشير لماذا لم يُناصره بقوّاته على المحتلّين الذين يُريد اخراجهم من لبنان فأجاب : « **لأنها ليست معركتي، فالاسرائيليون دخلوا لأجل أنفسهم وليس لأجلنا** ».

المداهنة، وحمل المباخر والتسبيح بالحمد تركها بشير الجميّل لجماعة ما يسمّى بـ « الحركة الوطنيّة » لدى كلّ زيارة لهم الى دمشق او غيرها، أمّا هو فلا عاصمة له يزورها.. إلّا عاصمة أمّته العظيمة بعد أن يتحقّق « لبنان الوطن الباهر » الذي يجول حُلُماً في خياله.

بشير الجميّل:
ديمقراطية وانضباط

كثيرة هي الاتهامات التي وُجِّهت الى بشير الجميّل. فالذين لم يستطيعوا قهره في ميادين القتال ظنّوا أنّ باستطاعتهم تحطيمه عن طريق إلصاق شتّى النعوت به و « تبليغ » الرأي العام صورة مشوَّهة عنه. والذين مارسوا أفظع أنواع الإرهاب بحقّ المواطنين اللبنانيين في الجنوب والبقاع والشمال شهدوا له بالانسانيّة لأنَّ مذمّته أتت منهم، وذلك عندما ألصقوا به تهمة « الحاكم المستبدّ » او « الدكتاتور الصغير ».

والذين مارسوا الخطف بحقّ أبناء لبنان، ثم ضاعت آثار المخطوفين ولم يُعرَف أهُم في « المزّة » أم في المخيّمات أم في ظلام القبور، تناسَوا كلّ « مآثرهم » هذه لدى صدور هفوة ما عن أحد أفراد « القوات اللبنانية » أو بعضهم ليجعلوها مأخذاً على بشير الجميل بالذات.

والذين تُحصي « مخابراتهم » و « أمن ثورتهم » أنفاس الناس في المناطق التي يُسيطرون عليها أبوا إلّا أن يروا في بشير الجميّل حاكماً بالحديد والنار، مع أنَّ المنطقة المحرَّرة من لبنان كانت تشهد يوميّاً لجوءاً إليها من المناطق الرازحة تحت وطأة اللاجىء والمحتلّ.. ومن المسلمين قبل المسيحيّين. وهذه السفارة العراقية، والسفارة الفرنسية، وغيرها قد انتقلت من المنطقة الغربية الى المنطقة الشرقية من العاصمة هرباً من الفوضى الأمنيّة والظلم والغدر والإرهاب.

والتنظيمات والمنظّمات والأحزاب التي تشتبك منذ نشأت بعضها مع البعض : « فتح » مع « الصاعقة »، « أمل » مع « جبهة التحرير العربيّة » و « منظمة العمل الشيوعي » وبعض الفصائل الفلسطينية..، الحزب السوري القومي الاجتماعي مع الحزب التقدمي الاشتراكي و « المرابطون »، جناح ابو العبّاس وجناح أحمد جبريل داخل « الجبهة الشعبية ـــ القيادة العامة »، « جيش لبنان العربي »، « الاتحاد الاشتراكي العربي »، « جبهة النضال الشعبي » وسائر « الجبهات » و « الأبوات الفلسطينيين » والفصائل التي كان لها، تبعاً للظروف، اشتباكات دامية مع فصائل أخرى ممّن يضمّهم وإيّاها « خندق واحد »، هذه التنظيمات والمنظمات والأحزاب لم تتورّع عن إطلاق وصف « حرب القبائل » على عمل القوات اللبنانية لتوحيد البندقيّة والقضاء على « الفاتحين على حسابهم » للارتزاق تحت شعار الانتساب الى المقاومة اللبنانية، وكأنّ أصحاب الاتهام هم منبع التحضّر وذروة الرقيّ في مسلكيّتهم الحزبيّة والنضاليّة.

ولكن.. من بين غمام هذا التشويه الإعلامي المقصود يطلّ وجه بشير الجميّل أبيض ناصعاً، له من ديمقراطيّته الأصيلة، والتزامه حدود الواجب لا يتعدّاها، واشتراكه في القتال كمقاتل عاديّ ومقاسمته المقاتلين مشقّة عيشهم ولذع الشوك والحرّ والبرد، وانضباطه الحزبيّ الرائع قبل إعفائه، أخيراً، من مهامّه الحزبيّة ليتولّى عبء المهمّة الأكبر، مهمّة ربّان السفينة التي تحمل على متنها اللبنانيين جميعاً لينجو بهم من الطوفان الذي كاد، لولاه، ان يُغرقها.

ذلك ان القضية التي بات يحملها على كتفيه اكبر من حجم حزب لأنها بحجم وطن.

واليوم، وقد بات بشير الجميل رسميّاً لجميع اللبنانيين، وهو كان لهم جميعاً بالفعل قبل ذلك، لم يجد من أرادوا التشويش على انتخابه للمسؤولية الأولى في البلاد غير القول ان عهده سيكون عهد حكم الحزب الواحد، فما هي حقيقة موقف بشير الجميل من الحزب الواحد ؟

إنّه، دون مواربة ولا تحايل في الكلام شأن من يريد ان يقول شيئاً لا يُلزمه مستقبلاً، يُعلن بما لا يقبل تأويلاً او لبساً أنّ مسألة الحزب الواحد هي تهمة لا أكثر.. وتتناقض أصلاً وعقيدةَ الكتائب المرتكزة الى الديمقراطية والتعدّد الحزبي. كما أعلن ايضاً أنّ حركة السابع من تموز لم تكن من أجل الحزب الواحد، بل من أجل الجيش الواحد الذي لا يكون تحرير لبنان إلّا به، أمّا السياسة فمفتوح بابها للجميع. وحسم هذا الموضوع بقوله : « **نحن أذكياء كفاية لندرك أنّ اللبناني لا يقبل**

أبداً **بالحزب الواحد »**. هكذا.. بكلام واضح كالشمس لا يحتمل رجعةً عنه.

وهل هناك من رحابة وسعة صدر ناشئتين عن ديمقراطية أصيلة أكثر من إعلانه، وقد انكسرت شوكة القوة التي كانت تأخذ بناصر الأحزاب التي تقاتله عسكرياً، أنّ هذه الأحزاب تستطيع ان تتمتع بالحرّيّات والضمانات ؟ فيقول : « **أمّا في ما يتعلق باللبنانيين، حتى اولئك الذين يعارضوننا ايديولوجياً، فيُفترض ان يتمتّعوا بكل الحرّيّات والضمانات اللازمة** »، ويُضيف : « **إنّ الحزب القومي السوري، وكذلك الحزب الشيوعي والاحزاب اللبنانية الاخرى، سيكون لها كامل الحرية والطمأنينة اللتين تتمتع بهما احزاب الجبهة اللبنانية** ».

وبعد ان انتُخب رئيساً للجمهورية وثارت حملة مفتعلة من جانب بعض الزعماء والفئات ضدّ هذا الانتخاب أعلن ردّاً على ذلك أنه ليس ضدّ قيام معارضة نزيهة، وانه كحكومة سيكون نزيهاً مع المعارضة التي قد تقوم !.. وعلى استعداد لمساعدتها حتى تكون معارضة بكلّ ما للكلمة من معنى في بلد ديمقراطي.

سلسلة التهم

السيطرة الفردّية، وفرض عبادة الشخصيّة، تهمتان أيضاً من جملة التهم الموزّعة ذات اليمين وذات اليسار، وهمّها فقط تشويه سمعة بشير

الجميل السياسية، وتسويد صفحته ومحاولة القضاء على رصيده لدى اللبنانيين.

وكعادته يوضح موقفه وموقف حزبه من النزعة الفرديّة، وإبراز الشخص على حساب المجموع، بشكل حاسم لا يدع مجالاً للأقاويل، وبتواضع يصل الى حدّ التواري أمام المقاومة ككلّ، وأمام فضل الشهداء الذين اشتروا بدمهم لبنان. فعلى سؤال طُرح عليه يقول :

« اذا غاب بشير الجميّل عن الساحة فمن يُكمل الطريق ؟»

يردّ مجيباً : « إنّ هذا التيّار الذي اسمه « المقاومة اللبنانية » ليس من صنع رجل واحد. ثم إنّني لست الشخص الأساسي في هذا التيّار. لا أعتقد أنّ في غيابي غياباً للخط الذي رسمه آلاف الشهداء ».

فأيّ رجل يضطلع بدور طليعيّ كالدور الذي اضطلع به الشيخ بشير الجميل يُعطي تصريحاً كهذا حول نفسه يتجلّى فيه الزهد الكامل باحتكار الفضل والتقدّم على الآخرين ؟ ! فـ « هذا التيّار ليس من صنع رجل واحد »، ولا يعتقد « أن في غيابه غياباً للخطّ المرسوم بدماء الشهداء ». يقول ذلك بمنتهى الجزم والوضوح، لا بالعبارات المطّاطة وصيغ التواضع الكاذب.

« كلّ ما في الأمر أنني مسؤول عسكريّ على الأرض.. لا أكثر »، بهذه البساطة يُحدّد البشير نفسه، وبروح الانسان غير المُعقّد، وغير

المأخوذ بمركَّب العظمة.

ألا يُلاحظ القارىء أنّ أعظم ما في شخصيّة هذا الانسان هو تجرُّده من عوامل الضعفِ البشري وارتقاؤه الى مستوى من التحكّم بالذات والسيطرة عليها لا يُتاح للكثيرين من الناس ؟ !

على من يستند بشير الجميّل ؟

إنَّ من يتتبّع التطورات والأحداث السياسية والأمنية في لبنان والمنطقة لا يجد تصريحاً واحداً لمسؤول فلسطيني او عربي من « جبهة الصمود والتصدّي » او من جماعة « الحركة الوطنيّة » في لبنان يطعن فيه بالاتحاد السوفياتي او بسوريا او ليبيا، او يأخذ على واحدة من هذه الدول مأخذاً او يلاحظ عليها ملاحظة. فهو لا يجد على ألسنة هؤلاء سوى التسبيح بالحمد والتبخير : فـ « سوريا ــ الثورة رأس الحربة في النضال »، و « الاتحاد السوفياتي صديق الشعوب ونصير الحريّة والاشتراكية وعدوّ الرجعيّة والاستعمار »، و« ليبيا القذّافي وايران الخميني مصدّرتا الثورة الى الشعوب الواقعة تحت نير الامبرياليّة ». هذه هي حال التبعيّة، تبعيّة حركة من الحركات او دولة من الدول لجهة أخرى أكبر منها تستعملها كأداة لها.

مقابل ذلك ماذا نرى من بشير الجميّل المتّهم بالتزلّم للغرب او بالعمالة لاسرائيل ؟

إنّ ما تناول به كلّ الجهات الإقليميّة والعالميّة في خطبه وأحاديثه وتصريحاته يدلّ على تحرّره من كلّ تبعيّة من جهة.. وكفيل من جهة أخرى بأن تتخلّى عنه هذه الجهات لو فرضنا أنّه كان على علاقة بها. فهو لم يترك له صديقاً، ولم يُوفِّر أحداً ممّن أرادوا التضحية بلبنان او استخدامه مطيّة لأغراضهم او أهملوا القيام بواجبهم نحوه او تحفّظوا في مدّ يد المساعدة إليه، بل وجّه إصبع الإتهام الى الجميع، وبيَّن بالبرهان أنّ لبنان أعزل من أيّ تأييد إقليميّ او عالميّ بل هو فريسة للجميع :

ــ « اسرائيل تقصفنا لأننا قاعدة فلسطينيّة. الفلسطينيّون يقصفوننا لأننا، في رأيهم، قاعدة اسرائيليّة. سوريا تقصفنا لأننا قاعدة استعماريّة. الغرب تخلّى عنّا لأنّه اعتبر أنّنا سقطنا في أحضان الشيوعيّة. كلّ قوى العالم تتصارع على ظهرنا ».

ــ « إنّ الحدود الدولية هي حدود المصالح الدوليّة في الشرق الأوسط، فيما نحن نريد حدودنا ترجمة لمصالح وصالح شعبنا ».

ــ « على الغرب أن يفهم أنَّ لبنان ليس جسره الى حضارة النفط، وعلى الشرق أن يفهم أنّ لبنان ليس جسره الى حضارة الترف، وعلى الفاتيكان أن يفهم أنّ مسيحيّي لبنان ليسوا مادة اختبار للحوار المسيحي ــ الاسلامي في العالم ».

حتى الفاتيكان لم يستثنِه بشير الجميل من تحذيراته الصارمة.

ــ « بإمكان هنري كيسنجر أن يُقدّم للفلسطينيين إحدى الولايات

الأميركيّة اذا كان فعلاً يُحبّ الفلسطيني الى هذه الدرجة، ولا يحقّ له أن يُقرّر مصير شعب لا ينتمي إليه.. على حساب أرض لا يملكها ».

ــ « الأسطول السادس جاء في السنة ١٩٥٨ ليضحك علينا وليس للدفاع عنّا، لأنهم كانوا مهتّمين بموضوع « حلف بغداد » أكثر من اهتمامهم بنا ».

ــ « أوروبّا ودول العالم لا تستطيع هضم الوجود المسيحي في هذه النقطة من العالم لأنه يحول دون تنفيذ كلّ مخطّطاتها ».

ــ « نحن نُواجه الأميركي الذي يُريد رأسنا لأنه يُريد حلّ قضيّة كبيرة. الأميركي يُريد تحطيمنا حتى يتمكّن من تمرير قراره وتنفيذه ».

ــ « إنّكم تتدرّبون (لأفراد « القوات اللبنانية ») لأنّ الأميركيّين يُحاولون أن يفرضوا عليكم تقسيم بلادكم، تتدرّبون لأنّ كلّ الغرب يتآمر علينا لتقسيم بلادنا ».

ــ « الأميركيّون والغربيّون لم يستوعبوا بعد أنّ ما نقوم به هو دفاع عنهم وعن حضارتهم، يُحاولون اليوم بيعنا ببرميل بترول او بأيّ شيء آخر. إنّ الغرب ينحطّ اليوم بسياسته وأخلاقه واقتصاده ».

مكمن الصدق في هذا الكلام أنّ قائله لا يُنكر أنّه يُدافع، في المقاومة التي ينهض بها، عن القِيَم التي كانت أساساً قِيَم الغرب المسيحي، قِيَم الحضارة الغربيّة التي لم تعد تهمّ أصحابها عندما طغت المادّيّة عليهم فانحرفت بهم الى تأمين مصالحهم الدنيا على حساب الشعوب التي تدين بحضارتهم وقيمهم وتؤمن بها حتى الفداء في سبيلها، وعلى حساب المبادىء الخلقيّة التي كانت ترفع لواءها حضارة « العالم الحرّ ». فإذا بالتمسّك بكلّ ذلك ينحصر بشعوب صغيرة كالشعب اللبناني فيما يتنكّر له أصحابه الأساسيّون، واذا بلبنان يحمل على كتفيه وحده عبء الدفاع عن هذه القِيَم نيابةً عن الذين أطلعوها ونادوا بها في العالَم. ثمّ أداروا ظهرهم لها حتى الإسفاف الى حضيض عبادة المادّة والخضوع في سياساتهم لأوليات شركات النفط العالميّة وملوك الصناعة والمصارف وتجّار السلاح.

إنّ بشير الجميل يُعلن على رؤوس الأشهاد أنّه في موقع الدفاع عن ديمقراطيّة الغرب، وعن حرّية الغرب، وعن كرامة الإنسان كما تفهمها الأنظمة التي تُقدّس الفرد، وتُعلي من شأن ذلك المخلوق على صورة الله ومثاله. وليس في إعلانه هذا تزلّف، لأنّه فيما يُمجّد حضارة العالم الغربيّ ينعي عليه التخلّي عن تعاليمها والانحدار في مستواه السياسي والخلقي عن روحها ومضامينها، ويصفعه صفعاً بكلامه وهو يشير الى هذا الانحدار المخجل.

هذا الذي لا يعرف إلّا أن يقول الحقيقة دون تنميق، كما شهدنا فيما يتعلّق بموقفه من الغرب، يقول الحقيقة خالصة في موضوع تهمة العمالة لاسرائيل.

والشيخ بشير اذا نفى العمالة لإسرائيل فقد سبق ورأينا أنّه، بطبيعته، بعيد عن المداجاة، ولا يعرف النفي السياسي الذي يرى فيه العارفون تأكيداً لا نفياً. إنه لو كان عميلاً فعلاً لاسرائيل لأعلن ذلك في وجه الجميع. فهو أولاً لا يهاب لكي يُخفي الحقيقة، ثمّ إنّ ما أصابه وأصاب بلاده ومقاتليه من أعداء اسرائيل المزعومين لن يُصيبه أكثر منه فيما لو صرّح بعمالته لها. وبعد ذلك فصراحته وصدقه اللذان لمسناهما في خطبه وأقواله لا يسمحان له بالكذب والرياء، فمن يكذب يكذب في كل شيء ولا يكذب في أمر واحد.

ومَن لا يذكر الإتهامات التي وُجِّهت الى بشير الجميل على كثرتها وتنوّعها، وهي التي لم يثبت منها شيء لأنّه لم يُنفِّذ شيئاً ممّا أُتهم بالعمل على تنفيذه مع أنّه كان قادراً على ذلك ؟ فالتقسيم كان قادراً على إعلانه لو شاء.. ولم يفعل :

ــ « وحدنا نستطيع أن نعلن اليوم دولة التقسيم، وهذه أمنية غيرنا وغايته ليبرّر لاحقاً اعلان دولة التوطين. خاب فأله، لن نُقدم عليها لا اليوم ولا في أيّ يوم ».

ــ « إنّنا ضدّ تقسيم هذا البلد وضدّ إقامة كيان مسيحي او ماروني في لبنان. ونحن ندرك أنّ هذا سيكون خطأً مميتاً، وسنقاوم أيّ فكرة تقسيميّة او أيّ فكرة يُمكن أن تؤدّي الى قيام دويلة طائفيّة على جزء من أرض لبنان ».

ــ « الوطن القومي المسيحي، قال، « يتنافى مع مفهومنا للوطن لبنان ». لذا أعلن صارخاً : « لا نريد وطناً قوميّاً مسيحيّاً، والتقسيم نعتبره كارثة ».

تصريح لا يُصرِّح به مرّة واحدة، او بصورة عابرة، رفعاً للعتب، بل يقوله ويعيد قوله في كلّ مناسبة، مركّزاً عليه، ومعطياً إيّاه بالشكل الجامع المانع الذي ليس فيه أثر لأساليب « دوزنة » الكلام بحيث تترك لأصحابه سبلاً ومنافذ لإلباسه معنًى آخر عندما يريدون، او للتهرّب من بعض مضامينه و « التكويع » عنها عند الحاجة :

ــ « نحن ضدّ أيّ تقسيم للبنان، وضدّ أيّ تركيبة يُمكن أن تؤدّي الى هيمنة أي فريق على أيّ فريق آخر ».

ــ « إنّ التقسيم ليس في حاجة الى مقاومة إنما الى استسلام فقط. ولو كنّا نريد التقسيم لَما كان من الضروري أن نُقاوم، ولكنّا بنينا هنا دولة مسيحيّة، ولكانوا بنوا في الجهة المقابلة دولة فلسطينيّة ».

ــ « هل جُننّا لنقبل بالانغلاق على ذواتنا داخل « غيتو »

مسيحي والاعتزال في معتصم « شابرول » والانعزال عن بقية فئات الشعب اللبناني ؟ إنّ تاريخ المسيحيّين في لبنان ينمّ كلّه عن جهد دائم للانفتاح على سائر الشعوب التي نتقاسم واياها هذه الارض. هنالك امور كثيرة تحول دون الافتراق : مصالح وصداقات وتحالفات، كما أنّ هناك صفحات من التاريخ كتبناها معاً ولا يمكن لأحد أن يحرّفها.

لا بل هو يجعل من المقاومة اللبنانية بحدّ ذاتها نفياً للتقسيم ورفضاً له : « **المقاومة تعني رفض التقسيم لأنّ كلّ لبنان هو لنا** ».

ويبتعد الزمن بالفترة التي كان يُلقي فيها مثل هذه التصريحات، وتحصل تطوّرات مهمّة على الساحة اللبنانية، ولكنّها لا تُبدِّل من موقفه حيال التقسيم او خلافه، اذ لا يفعل كما يفعل السياسيون المعهودون : تتغيّر اتجاهاتهم بتغيّر الظروف والمعطيات، فيؤكّد مجدداً رفضه فكرة التقسيم.. واصفاً إيّاها بأنّها كانت خرافة وزالت، وأنّ من كان يراهن على تقسيم لبنان للاستمرار على أرضه سقط رهانه.

وفي « المؤتمر الدولي الاول للتعاون مع لبنان » جدّد الشيخ بشير رفض التقسيم والتوطين و إقامة وطن مسيحي.

ومثلما أُتهم بالعمل للتقسيم، أُتهم بالانعزاليّة والطائفيّة، فإذا بالمسلمين والمسيحيّين يسمعون منه :

— « **لن نُغلق الأبواب، لن نسدّ المنافذ. سنزيد من انفتاحنا ونحافظ**

على يدنا ممدودة. إنّ المسلم اللبناني في حاجة إلينا ليستعيد حرّيّته وأمنه، ولبنان في حاجة الى أن نكون معاً ليستعيد وحدته واستقلاله وسيادته ».

كما يسمع المسلمون منه أنّهم « شركاؤنا في المصير، فمعهم سنتمكّن من بناء لبنان جديد وميثاق وطني جديد ».

بشير الجميّل ضدّ التعصّب الدّيني

ومثلما كان بشير الجميل واضحاً وصريحاً وجازماً في تركيزه على لبنان الواحد، بمساحته الكاملة والذي هو لجميع بنيه، وعلى أنّ التقسيم ليس في وارد أهداف المقاومة اللبنانية ولا الكتائب اللبنانية ولا الجبهة اللبنانية، كان أيضاً واضحاً وصريحاً وبسيطاً في إعلانه أنّ المقاومة اللبنانية هي باسم جميع اللبنانيين، وتجري لحساب الجميع ولو كان هناك بينهم فئة، او قسم كبير من هذه الفئة، لا يستطيع أن يُشارك فيها، داعياً أبناء المناطق اللبنانية كلّها الى الانتفاض في وجه الغريب والمحتلّ والإعلان بصوت لبناني واحد عن رفض السيطرة والهيمنة غير اللبنانية على لبنان، ومتعهّداً بمدّ يد المساعدة والمؤازرة الى هؤلاء الذين تثور فيهم كرامتهم وتدفعهم الى هذه الوقفة البطلة.

ذلك أنّ المعركة، معركة تحرير لبنان ممّن يسيطرون على جزء كبير منه، بات يحتاجها المسلم الخاضع لهذه السيطرة أكثر من المسيحي

الذي استطاع الاحتفاظ ببقعة حرّة يعيش فيها عزيزاً بانتظار تحرير سائر أجزاء وطنه، الذي شهدنا طلائعه اليوم : « **المسلم أساء فهم موضوع التحرير، فبدا وكأنّه ضدّ التحرير وهو بحاجة إليه أكثر من المسيحي** ».

ومنذ اليوم الذي بدأ فيه الشعب المسلم الطيّب في بيروت الغربية وصيدا وطرابلس يذوق مرارة الاحتلال وآلامه بدأ يشدّ أزر بشير الجميل كنقيض للاحتلال ويُعطيه التفويض كرئيس منقذ للجمهورية.

لا بل إنّ اعتقاد الشيخ بشير هو أنّ اقتناع المسلمين بالتحرير يُحقّقه دون معركة، لأنّ أبناء المناطق المحتلّة يلتحقون عند ذاك تلقائيّاً بأبناء المناطق الحرّة : « **إنّ اقتناع المسلم اللبناني بفكرة التحرير يُغني عن معركة التحرير، لأن السوري والفلسطيني موجودان هنا بسبب انقسامنا وليس بفعل اتحادهما** ».

ولقد ركّز قائد المقاومة اللبنانية بصورة مستمرّة على أنّ المعركة التي تخوضها هذه المقاومة هي معركة لبنان من أجل لبنان.. وليست معركة جماعة في هذا البلد ضدّ جماعة :

« — **الرأي العام المسلم يجب ان يطمئنّ الى أنّ المقاومة التي قمنا بها هي باسمنا وباسمه، وأنّ المناطق المحرّرة لنا وله.**
— **إنّ المعركة التي نخوضها هي لأجل كلّ لبنان وليست لمصلحة فريق على حساب فريق آخر.**

ـ شهداؤنا الخمسة آلاف لم يسقطوا من أجل الأشرفية والمتن وجبيل وكسروان، إنّما من اجل كلّ لبنان، بل من أجل أن تصبح بقية المناطق حرّة مثل الأشرفية والمتن وجبيل وكسروان.

ـ في إمكان المجتمع المسيحي ـ الإسلامي أن يرى أنّ هذه المقاومة كانت لحساب كلّ لبنان وكلّ الفرقاء اللبنانيين.

ـ نريد أن نحرّر، وبالضبط نريد تحرير المنطقة الغربية لكي تعود منطقة لبنانية حرّة ».

(وها هي المنطقة الغربية اليوم تتحقّق لها أمنية الشيخ بشير).

فعودة المناطق المحتلّة من لبنان الى أحضان لبنان الحرّ يُشكّل هاجساً لدى الشيخ بشير الجميّل، حتى ليستفاد من قوله الأخير أنّ معركته هي من أجل لبنان المسلم بالذات، الذي فصلوه عن لبنان المسيحي، لكي يعود فيلتقي و إيّاه.

وقد عبّر عن هذه الإرادة بشكل أوضح عندما قال : « **إذا كنّا نواصل مقاومتنا فلأنّنا نعاند في عدم التخلّي عن أجزاء من أمّتنا وعن أبناء من وطننا** ». فلولا هذه الأجزاء، وهؤلاء الأبناء، لالتقى الشيخ بشير والمقاومة اللبنانية بالمناطق التي أبت الخضوع وهي كلّها من لون ديني واحد، ولأعلن « دولة لبنان الحرّ » في هذه المناطق :

« إنّ اليوم ليس موعداً لإعلان دولة لبنان الحرّ، لأنّ أكثر من نصف البلاد ما يزال تحت الاحتلال، ولأنّ إعلانها يجب أن يكون مشتركاً بين المسيحيّين والمسلمين ».

ولكن أين هو من الاكتفاء بهذه المناطق التي استطاع بفضل مقاومته تجنيبها الاحتلال :

« إنّ حزننا على المناطق اللبنانية الواقعة تحت الاحتلال يفوق فرحنا بالمناطق اللبنانية المحرّرة. إنّ الأمن والحرّيّة لا يتجزّآن في الوطن الواحد، ولا يكتملان إلّا اذا شملا كلّ الوطن ».

ولم يكن كلامه هذا ممّا يُقال لغاية ما في حينه، اذ عندما حدث ما قلب الموازين في لبنان وقلّص ظلّ الاحتلال عن كثير من المناطق بحيث اعتُبر فريق بشير الجميّل منتصراً أبى هو أن يُعتبر هذا الانتصار انتصاراً للمسيحيين على المسلمين فقال : « **نحن، مسلمين ومسيحيين، غالبون لأنّ طرحنا تحقّق وانتصر، والمغلوبون هم اعداء لبنان** ».

لقد صوّروا بشير الجميل للمسلمين شبحاً مخيفاً يقوم الخطر عليهم حيث تصل ذراعه ويصل زحف قوّاته، وهو في الحقيقة لم يقف موقف القوة إلّا من الغرباء الذين تطاولوا على لبنان والذين مشوا في ركابهم من اللبنانيين أيّاً كان دينهم. فإذا كان قد اشتدّ على المعتدين والمتواطئين معهم فليس لكون هؤلاء من مذهب معيّن بل لأنّهم خرجوا على ولائهم الوطني. وهو لم يُفرّق في هذا المجال بين مسلم وغير مسلم ممّن نكثوا عهد لبنان، بل كلّ ما طلبه من المسلم أن يضع يده بيد الذين أبوا التنكّر لوطنهم فيعمل معهم على خلاص هذا الوطن، وهو لن يلقى عندئذ اضطهاداً بل مساعدة :

ـ « إنّ على المسلم اللبناني أن يشترك معنا عمليّاً في التحرير، ونحن مستعدّون لمساعدته على انتزاع المبادرة في مناطقه ».

ـ « ماذا ينتظرون حتى ينتفضوا وينهضوا ويضعوا أيديهم في أيدينا لننطلق معاً في معركة التحرير ؟ ».

ـ « يجب أن يعلموا أنّنا معهم إذا هم أرادوا التحرير، ويجب أن يعرفوا أنّ حقوقهم محفوظة بالنسبة إلينا ».

ـ « لقد اجتزنا أزمة البقاء الحرّ، ويبقى أنْ نساعد سائر اللبنانيين على اجتياز أزماتهم والتخلّص من الاحتلال ».

ـ « إنّ دورنا، مسيحيّين ومسلمين، أن نتكاتف من أجل تحرير بلادنا ».

ـ « إنّ المسلم اللبناني في حاجة إلينا ليستعيد حرّيّته وأمنه، ولبنان في حاجة الى أن نكون معاً ليستعيد وحدته واستقلاله وسيادته ».

ـ « قوّتنا لكم، فالمسيحيّون في مناطقهم الحرّة لم يعودوا في حاجة الى القوّة.. بينما انتم في حاجة إليها ».

ـ « ساعدوا أنفسكم أيّها المسلمون اللبنانيون بقدر ما نحن نريد أن نساعدكم ».

ــ « أيّ قرار نتخذه إنّما نتّخذه باسمنا وباسم المسلم، ونحن على استعداد لنعلنه ونطلعه عليه ونتفاهم معه في شأنه لنتخلّص من الاحتلالات ».

إلّا أنّه انتهى بأن دعا المسلمين دعوة حاسمة الى التعاون مع المسيحيين على مواجهة التطوّرات مواجهة لبنانية واحدة، موضحاً أنّه مضطر، اذا لم يوافق المسلم، الى اتخاذ مبادرات وحده، ومسارعاً إلى طمأنة الفريق الآخر الى أنّ حقوقه « محفوظة كاملة » عندما ينجح.

وقد عبّر عن حرصه على ألّا يأتي التحرير ماسّاً بأمن المسلمين :

ــ « لا بدّ من توضيح مفهومنا للتوحيد والتحرير حتى لا يأتي توحيد لبنان على حساب حريّة المسيحيين، ولكي لا يأتي تحرير لبنان على حساب أمن المسلمين ».

وكما دعا المسلمين الى الاشتراك في عملية التحرير دعاهم الى الاشتراك في عملية بناء لبنان الجديد :

ــ « ندائي الى المسلمين : تعالوا نبني وطناً على أساس أن يؤدّي كلّ منّا قسطه كاملاً في هذا البناء ».

ــ « أتوجّه الى المواطن اللبناني دون التطلّع الى هويّته المذهبيّة لنقيم معاً نظاماً لبنانياً جديداً ».

ــ « لبنان يمرّ في أدقّ مرحلة من مراحل السنوات السبع، ويجب ان

يتقرّر وضع حدّ لكلّ رواسب الماضي وتأمين الانقطاع بين التاريخ الجديد ولبنان البالي. نريد الـ ١٠٤٥٢ كيلو متراً مربعاً محكومةً لبنانياً مع سيادة لبنانية على الارض من ضمن نظام سياسي جديد، فليتفضّل المسلمون بالجلوس معنا الى طاولة مستديرة واحدة لنفكّر في وضع أسس المستقبل ».

ولبنان الذي يطمح إليه الشيخ بشير هو لبنان الذي يكون لجميع اللبنانيين، لا أحد يدّعي أنّه له أكثر من غيره :

ــ « لبنان للمسلم وللمسيحي، إنما ضمن إطار دستوريّ يُجنّبهم ويُجنّبنا مجزرة ثانية مثل التي مررنا فيها ».

ــ « لبنان نريده لكلّ اللبنانيين لا لفريق دون الآخر، وبصورة خاصّة لا نريده لفريق على حساب الفريق الآخر ».

ــ « سنعمل.. ويجب أن ننجح في خلق تركيبة لبنانية جديدة تؤمّن للجميع الحريّة والأمن ».

والحلّة المزوّرة التي أرادوا إلباسه إيّاها تجاه المسلمين ينفضها عنه بلهجته الواقعيّة الصادقة :

ــ « لا تخافوا. لا تصدّقوا ما يُقال لكم عنّا. حاجتنا بعضنا الى

بعض تفرض اللقاء السياسي والنضال العسكري ».

فهو يُقيم من الحاجة المتبادلة رابطاً لا انفكاك له بين جناحي لبنان، وعاصماً من كل تباعد وفرقة بينهما.

ــ « **أقول للمسلمين لا تخافوا منّا، تعالوا نحرّر لبنان معاً ».**

ــ « **لماذا يُمنع قيام جبهة إسلاميّة موحّدة تضمّ القادة المسلمين المعروفين والجدد لتلتقي والجبهة اللبنانية ؟ ».**

وفي الحفاظ على حياة اللبنانيين لم يميّز بشير الجميّل بين أبناء هذه « الضفّة » او تلك من « ضفّتي » النهر اللبناني، فقال : « **إنّ أمن المناطق المحتلّة يهمّنا مثل أمن المناطق الحرّة، كما يهمّنا أمن المسيحيين في المناطق غير المسيحيّة وأمن المسلمين في المناطق غير الإسلاميّة ».**

وفي حرصه على سلامة المسلم حرصه على سلامة المسيحي تعدّى الشيخ بشير حدود لبنان الى المنطقة الشرق أوسطيّة كلّها، معتبراً أنّ الصيغة اللبنانية تسقط لا بانتهاكها في لبنان فقط، وعلى خطوط التماس اللبنانية، بل وبانتهاك مضمونها في أيّ بلد عربي او شرقي : « **حين يكون القبطيّ يُضطهد في مصر، والشيعي يُضطهد في العراق، والسنّي يُضطهد في إيران، والمسيحي يُضطهد في الشرق تكون الصيغة اللبنانية تسقط هناك أيضاً ».**

وترشح من كلام الشيخ بشير تلك الغصّة لكون حرّيّته وحرّيّة إخوانه في المنطقة الشرقية غير مكتملة بحرّيّة سائر اللبنانيين في المناطق الأخرى. فالحرّيّة واحدة، إمّا ان تكون للجميع و إمّا أن لا تكون لأحد :

ـ « السيادة لا تتجزّأ، فإذا كانت جونية حرّة ومستقلّة والمنطقة الغربيّة من بيروت محتلّة فذلك يعني أنّ الاحتلال شامل ».

و إنّه فعلاً لكلام معبّر عن مشاعر المواطنين في المنطقة الحرّة الذين يحملون همَّ أشقّائهم في المناطق الخاضعة لسيطرة الغرباء، حيث يشعرون في صميمهم بأنّ وطنهم لم يعد حرّاً سيّداً، وبأنّه يُعاني وطأة الأقدام الغريبة التي تدنّس تربته باسم الأخوّة العربيّة، لا لأنّهم هم بالذات ينوءون تحت هذه الوطأة وقد جنّبتهم المقاومة اللبنانية شرّها.. بل لأنّ أبناء قومهم الآخرين خاضعون لنيرها ويجب إنقاذهم منها ليتساوى اللبنانيون جميعاً في أنهم أحرار وأسياد.

أمّا من افتعل الخوف المتبادل بين المسلم والمسيحي، بعد أن افتعل الخلاف والنزاع بينهما، فهو المنفّذ الجديد لسياسة « فرّق تسد »، أي المحتلّ الذي تسرّب الى بلادنا من هذه الثغرة التي فتحها في جدارنا : « **إنّ قوّات الاحتلال تخوّف المسلم اللبناني من المسيحي اللبناني بعدما أوقعت بينهما، لذلك ضروريّ أن تصحّح الصورة فيُسقط المسلم من نفسه عقدة الخوف المصطنعة، ومن عقله عقدة**

الخصومة المفتعلة، لكي يقوم الحلف اللبناني الصحيح الذي حجبه الاحتلال ».

وهو يدلّ المسلمين على موضع الخوف الحقيقي :

« خوفكم يُفترض ألّا يكون من اللبناني المسيحي بل من الغرباء الذين يستعملونكم لمصالحهم لا لمصالحكم. إنّنا ننتظر من المسلمين اللبنانيين أن يُصحّحوا هذه الصورة في أوساطهم وأذهانهم ».

ويُعلنها الشيخ بشير عالية :

ـ « نريد أن نعيش، نحن اللبنانيين جميعاً، معاً من دون تفرقة. نريد لبنان أن يكون لجميع ابنائه، ولن نستبدل بالمسلمين اللبنانيين أيّ شعب آخر ».

ـ « ليس في ذهن احد من اللبنانيين أن يُرحّل بعضنا البعض او يوزّع بعضنا البعض. لبنان وطن جميع اللبنانيين ».

وقد وضع الشيخ بشير مبدأ أن لا فضل للبناني على لبناني إلّا بمقدار عمله من أجل لبنان فقال :

« نريد لبنان حرّاً مستقلّاً سيّداً على جميع أراضيه، على أن يكون هذا اللبنان لجميع أبنائه بقدر ما يُدافع هؤلاء عنه ويعملون في خدمته ».

أجل، بشير الجميّل الذي أُتهم بالعداء للمسلمين لم يطلب من المسلمين في الحقيقة غير الولاء للبنان : « **لا يجوز أن يعتبر المسلم اللبناني المسلمين في الفيليبين أقرب إليه من اللبنانيين غير المسلمين، فالمساواة هي في كل شيء بما فيه الولاء للوطن** ».

وبشير الجميّل أخيراً لم يؤمن إلّا بالحوار وسيلة للتفاهم والتعايش بين المسلمين والمسيحيين في لبنان، وقد وجّه الدعوة للمسلمين بصدق و إخلاص للجلوس معه الى طاولة مستديرة واحدة، وللمشاركة في وضع أسس مستقبل لبنان الجديد :

ـ « **لبنان يمرّ في أدقّ مرحلة من مراحل السنوات السبع، ويجب ان يتقرّر وضع حدّ لكلّ رواسب الماضي وتأمين الانقطاع بين التاريخ الجديد ولبنان البالي. نريد الـ ١٠,٤٥٢ كلم٢ محكومة لبنانيّاً مع سيادة لبنانية على الارض من ضمن نظام سياسي جديد. فليتفضّل المسلمون بالجلوس معنا الى طاولة مستديرة واحدة لنفكّر في وضع أسس المستقبل الذي يناسبنا جميعاً كلبنانيين. منذ سبع سنوات ونحن نحاسب بعضنا، ويُطالبوننا بورقة قطع تعامل مع اسرائيل او بالتوقيع على مبادىء الوفاق الـ ١٤، او الموافقة على وثيقة دستوريّة او القبول بتطيير حكومة او بتطيير قائد جيش... يجب أن نضع حدّاً لكلّ هذه النغمات معاً، وهذه هي الطريق الوحيدة لنخلص جميعاً كلبنانيين، لئلّا نصل الى يوم يضطرّ كلّ واحد**

منّا فيه الى النجاة بالطريقة التي يراها مناسبة ».

ــ « ليعرف المسلم أنّه من مصلحة الفلسطيني أن يحصل ما يحصل... فالفلسطيني لا يسأل عن الجنوب ولا عن الشوف، والسوري لا يسأل عن لبنان، على الأقلّ، بمقدار ما يسأل عن سوريا... حان الوقت لنثق ببعضنا أكثر ممّا نثق بالغريب، فخلاص المسلمين في التفافنا على بعضنا ».

من يمرّ على هذه الاتهامات، قلنا، ويرى كيف تهاشتت على محكّ الواقع لن يعود يهتمّ بالإتهام بالعمالة لاسرائيل. فالخائن المتعامل مع العدوّ إنّما يهدف طبعاً الى تأمين مصلحته لأنّ الدافع الى الخيانة هو، بطبيعته، دافع نفعيّ. فهل التضحيات التي قدّمتها الكتائب اللبنانية والقوات اللبنانية وبشير الجميل هي تلك الثمار الطيّبة التي ينشدها متعامل كل ما يريد من تعامله ان يكون مفيداً له لا مكلّفاً إيّاه أفدح الأثمان ؟ إن العميل هو الذي يُفرّط ببلده من أجل أن يجني خيراً ذاتيّاً، لا من يقدّم له أعزّ ما يملكه الانسان. العميل يبيع بلده ولا يدافع عنه، يتواطأ عليه ولا يُقيم من جسده حاجزاً دون مسّه بأذى.

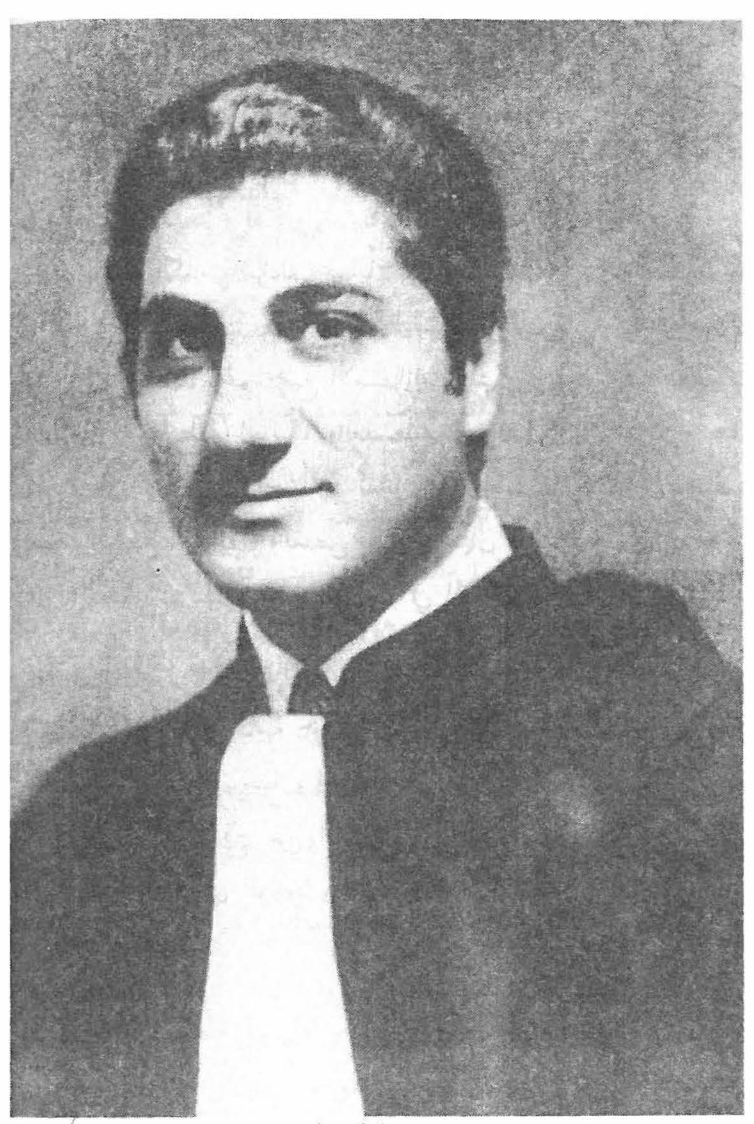
فماذا جنى بشير الجميّل من عمالته لاسرائيل اذا كان حقيقة عميلاً لها ؟

أَوَ لم يكن من الأجدى له، لو كان يسعى إلى نيل المغانم والمكافآت التي يهدف العميل الى نيلها، أن يُوالي الموجودين بكلّ ثقلهم وقوّتهم على الساحة اللبنانية..

فيتقاضى بدل ولائه هذا إنعاماتٍ وجزيل هبات ؟ لا بل الأصحّ أن يُقال ان هذا الاتهام الباطل يعكس شعوراً بالذنب لدى مطلقيه، ذنب من النوع نفسه، او يُشكّل محاولة من جانبهم لإبعاد الشبهة عنهم عن طريق إلصاقها بمن هو منها براء.

وقد تأكدت براءته عملياً من هذه التهمة عندما لم تُشارك « القوات اللبنانية » في أي من العمليات التي قام بها الاسرائيليون لدى اجتياحهم للبنان، رغم جميع الاستفزازات التي حاولت بها التنظيمات المسلّحة في المنطقة الغربية، والفلسطينيّون والسوريّون، استدراج هذه القوات الى الردّ للادّعاء بأنّها تُقاتل الى جانب الاسرائيليّين، فتلقّت المنطقة الشرقية القذائف والقنص بصبر واحتمال دون ردّ عليها، مردّدةً مع بشير الجميّل أنّ ذلك هو « مشاركة في آلام الأخوة بالمنطقة الغربيّة ».

باختصار القول فإنّ بشير الجميل لم يعتمد إلّا على نفسه، وعلى المقاومة اللبنانية، في مجابهة جميع القوى الغريبة التي تتصارع فوق أرض وطنه، وقد عمل بتضحية و إخلاص من أجل المحافظة على كلّ لبنان لكلّ اللبنانيين، ودافع عن القضية الكبرى، قضيّة الكيان والانسان وحرّيتهما وحقّهما في الوجود والحياة.



بشير الجميّل المحامي

بشير الجميّل ومستقبل لبنان

بشير الجميّل، حسب التعبير الفرنسي، «يرى كبيراً» (Il voit grand)، فالانسان الكبير لا يُمكن أن يكون ذا رؤية صغيرة، ولا يُمكنه الاكتفاء بالقليل والمتواضع من الأمور والمنجزات. فلا عجب أن ينظر بشير الجميل نظرة عملاقة الى لبنان الذي ينبغي أن يكون، لبنان الذي صغر على يد الصغار.. وسوف يعود فيكبر على يد الكبار.

فليس لدى بشير الجميل قبول بالعاديّ من الأشياء. إنّه لا يَرضى مطلقاً بالوسط، او بالترقيع وأنصاف الحلول. لذا فهو ضدّ الطريقة اللبنانية الشائعة، طريقةالتسويات، و«الهيك وهيك» وعدم انتهاج سياسة واضحة.. او الضرب على الحافر وعلى المسمار معاً. فهو كما يُقال بالفرنسية أيضاً، «Catégorique» أي منساق في اتجاهه الى المدى الأبعد لا يتردّد ولا يحار. وتبعاً لذلك فهو ضدّ بناء وطن يأتي «جهد المستطاع»، يأتي مراعياً لكلّ ذي مصلحة او اعتبارات قربه او بعيداً عنه، يأتي حسب رغبة هؤلاء واولئك دون رغبة أبنائه هو.

و« ربما هذا هو التحدي الكبير الذي يطرحه بشير الجميل من منطلق الرؤيا الساطعة التي يملكها للبنان الجديد. وهو في الحقيقة تحدٍّ يحتاج الى نموذج من المواطنيّة الرائدة التي تقول بتحقيق الذات من خلال الوطن وبتحقيق الوطن من خلال الذات، وذلك في اطار من الامتزاج المثالي بين الذات والوطن. وهو ما يُشكّل الانتماء الحقيقي والمثالي، انتماء الانسان الى الهوية والارض والبيئة والمجتمع، وفي معنىً اعمق انتماءه الى الحياة ».

إنّ لبنان الذي يرسمه بشير الجميل هو لبنان أصحاب الرؤيا المتطاولة الى القمم، لبنان العمالقة والأفذاذ في الفكر والعطاء والبناء والإبداع، لا لبنان الأقزام، محترفي السياسة وتجّارها وباعة الشعوب والأوطان :

ـــ « إنّ لبنان سيكون ذا مستوى وعلى صورة عبقريّته وفي عمقها، لأن لبنان لا بدّ من أن يكون كذلك أو لا يكون ».

ـــ « معاً نبني أمّة ذات مساحة معنويّة، تصبح الأولى بين أمم العالَم بقدرتها على تخطّي حدود العِرْق والدين والثقافة ».

ـــ « لبنان الجسر انتهى، ولبنان المزرعة انتهى، ولبنان السمسار انتهى، ولبنان الاستضعاف انتهى، لأنّ قبولنا بمبدأ « لبنان التضحية » جعل اللبنانيّين ضحيّة. »

ـــ « ما نريده هو أن نكون مستقلّين فعلاً في بلدنا، دون أن يسمح

لنفسه وزير خارجيّة بلد عربي او غير عربي بأن ينصّب نفسه وليّاً علينا ».

وهو يعرف صعوبة « المشروع » الذي لم يكن بالإمكان أن يرسو على غيره « التزامه »، لكنّ المركب الخشن قرّر أن يركبه، والكأس المُرّة أحبّ أن يحتسيها حتى الثمالة.. ليعذب الطعم ويحلو في مذاق لبنان :

« عمليّة سهلة أن نجمع سنوات الماضي، ولكنّ من الصعوبة بمكان أن نُحصي عمر المستقبل، اذ كلّما ظننّا أننا أدّينا قسطنا للعلى نجد أن الطريق لا تزال طويلة ».

أمّا الفَعَلة العامِلون في ورشة لبنان الجديد فسيكونون أنفسهم أولئك الذين سحبوا لبنان من أشداق التنّين. المنقذ هو نفسه الباني، والذي سفح دمه من أجل قضيّة البقاء هو الذي سيفرز عَرَقه من أجل قضيّة البناء :

« من هذا المكان انطلقت شعلة الصمود ومنه ستنطلق ورشة البناء. فالشباب الذين حملوا القلم قبل الحرب، والبندقيّة اثناءها، مستعدّون لحمل المعول بعدها ».

* * *

وعلى مثال الوطن الكبير يُريد بشير الجميل رئيساً كبيراً لهذا

الوطن. إنّ أروع صورة للرجل الجديد بأن يتبوّأ عرش لبنان، ويُعطى له مجده، هي التي نجدها في خطاب الشيخ بشير الذي ألقاه في عيد تأسيس الكتائب عام ١٩٨١، وطرح فيه مبادرته المعروفة :

« البلاد تحتاج الى رئيس قويّ، وتلفظ رئيساً ضعيفاً. نريد رئيساً في حجم تضحيات خمسة آلاف شهيد. نرفض رئيساً يُمدّد الأزمة ولن ندعه يصل الى المنصب. نريد رئيساً تأتمنه المقاومة اللبنانية على إنجازاتها ومكاسبها فلا يستعملها للمقايضة بل للمواجهة. نريد رئيساً وقف ولو مرّة أمام قبر شهيد، رئيساً ينقل لبنان من حالة التعايش مع الأزمة ومشاريع الحلول الى حالة الخروج من الأزمة وفرض الحلول ».

من هنا كان استبشار اللبنانيين، نخبتهم ورجال الشارع . نساؤهم وشبابهم والأطفال، بمجيء بشير الجميل الى سدّة الحكم. فقد ارتاحوا نفسياً الى هذه النتيجة لأنّهم سئموا الحكم المتخاذِل، المتردِّد، الصامت، الواقف مكانه، واشتاقوا الى رؤية حاكم يتخذ مواقف، يُقرّر ويفعل، يقول : « لا » في وجه أيّة قوة كانت غير هيّاب، يبني وطناً في حجم طموحه الذي لا يُحدّ، لا تُثنيه عمّا يُريده العقبات والعراقيل، ينطح الصخرة التي تعترضه.. فلا يُوهنها فقط بل يقلعها... يُفضي بالحقائق للشعب، يُجابه المغرضين والمنحرفين والمقصّرين بما فيهم، يُصرّح بنيّاته وأهدافه علانيّة، دون تكتُّم او مواربة. إنها الصفات التي

حدّد هو نفسه بعضها في « خطاب المبادرة » ولم يُحدّدها كلّها لأنّ الصفات والتي يتمتع بها بشير الجميل لا تُحصر في كلمات ولا في مطوّلات.

الدولة الحاضرة ونظامها

وكما يرى بشير الجميل « كبيراً » في نظرته الى مستقبل لبنان يرى بعين الكبير تفاهة الوضع الراهن للدولة والنظام :

« تحريرنا الحقيقي يمرّ بتغيير مؤسّساتنا. فديمقراطيّتنا لم تكن سوى شكليّة ونسخة كاريكاتوريّة عن النظام السياسي في الغرب، ولم يكن المواطن عندنا سوى أداة للحكم الذي لا يعمل إلّا لنفسه ».

ـ « إنّي أقاتل من أجل مفهوم سليم للدولة يقوم على معطيات عمليّة عوض التطبيق الحالي الجامد للقوانين الدستورية المستوردة من الخارج ».

وقد رفض بشير الجميل المفاهيم البالية للركائز التي يقوم عليها لبنان : رفض صيغة ١٩٤٣، ومبدأ الحماية الأجنبيّة، إذ صارح اللبنانيين بأنه لا حامي لهم إلّا أنفسهم، ومبدأ الضمانات الدستورية :

« إنّنا نرفض مبدأ الضمانات الدستورية التي يُحاولون إقناعنا بها. فالضمانة التي نريد هي تلك النابعة من صميمنا، والتي تجعلنا قادرين على مواجهة الطغيان مهما كانت أشكاله او أسماؤه »،

ومبدأ « لا غالب ولا مغلوب » لا يجوز أن يستمرّ. فهناك غالب هو الشعب الذي حارب دفاعاً عن وجوده، والمغلوب هو الهارب الذي سلّم مصيره الى غيره ».

وأخيراً رفض المساواة في الحقوق على الدولة البالية، والمؤسَّسَات الهرمة، قبل ان تكون هذه المساواة في الواجبات.

ومن زاوية نظرته العالية الى الدولة بمفهومها الحقيقي رأى بشير الجميل الدولة اللبنانية القائمة حاليًّا غير قادرة على أن تكون النظام الجديد الذي يتوق إليه اللبنانيون، وعلّل ذلك بعدّة أسباب أبرزها :

ــ إنها دولة غير آمنة، حدودها مستباحة، وغير حرّة، إرادتها مكبّلة.

ــ إن الطاقم الحاكم لا يؤمن أساساً بنظام جديد. المسؤولون يؤمنون بتطوير النظام من داخله، بينما هو ومَن يُمثّلهم يؤمنون بتغيير النظام من داخل لبنان.

ــ إنّ هذه الدولة فشلت في كلّ ما حاولت أن تقوم به؛ فلم تستطع أن تبني جيشاً قويًّا، او تؤلّف حكومة جدّية، او تُجري تشكيلات إداريّة حديثة، او تستعيد سيادتها على أراضيها، او تنشر جيشها في المناطق التي تحتاج إليه، او تزيل احتلالاً، او تقيم علاقات خارجية يُوثَق بها، او تُعيد اللحمة بين الطوائف، او تُنفّذ خطّة أمنيّة او تُحقّق وفاقاً وطنيًّا.

وهو فشل غير مستغرب لديه، نظراً للذهنيّة المسيطرة لدى الفريق الحاكم.. ولعدم تآلف الدولة مع إفرازات الأحداث.

ما هو البديل إذاً، في نظره، عن هذه الدولة الفاشلة ؟ هنا تتجلّى الرؤية الكبيرة بأجلى مظاهرها : البديل هو دولة ناجحة تُجسِّد طموحات الشعب والأماني التاريخية والآمال المستقبليّة. دولة لا تكون قوّتها من شرعيّتها فحسب.. بل تكون شرعيّتها من قوّتها أيضاً، لأنّه أسهل على القوّة في ظلّ الأوضاع الحاليّة والتغيّرات المرتقبة في المنطقة أن تجد نفسها شرعيّة من ان تحافظ الشرعية الحاليّة مدّة أطول على نفسها دون قوة.

نظرة ثوريّة الى الشرعية غير تلك النظرة الكلاسيكيّة إليها. فهو مع الشرعيّة القويّة، القادرة على فرض احترامها بقدرتها على فرض وجودها واستمرارها، لا مع الشرعية التي تنحسر وتتقلّص أمام القوى اللّاشرعيّة وهي تسترحم هذه القوى ان تبقي لها شبح وجود.

هل في هذا الموقف تنكُّر للشرعية، كما يُتّهم بشير الجميل، أم حرص وغيرة عليها ؟ إنه موقف يتلخّص بعبارته المعبّرة أقوى تعبير بكلمتين : « **نريد الدولة، ولكنّنا نريدها دولة** ».

واليوم، وقد رفعه ابناء وطنه الأوفياء الى المنصب الأعلى في البلاد، تكفي جولة استطلاع رأي بين المواطنين للتأكد من ايمانهم الجازم بأنه سيقول لهذه الدولة : « كوني » فتكون.

ومثل صراحته الجازمة في كلّ المواضيع : موضوع التقسيم، وموضوع الطائفيّة، وموضوع التعامل وموضوع الحزب الواحد نراه صريحاً جازماً في موضوع الموقف من الشرعية لا يترك مجالاً لتفسير او إبهام :

— « **أسعد يوم في حياتنا هو عندما تعود الدولة دولة بكلّ معنى الكلمة. لسنا ضدّ الشرعيّة لأن أيّ بلد لا يقدر أن يعيش من دون شرعيّة. لسنا ضدّ الجيش لأنّه من غير المنطقيّ ان تقوم دولة من دون جيش** ».

— « **إنّ شيئاً لم يضرّ بلبنان كما أضرّ به عدم احترامنا سلطته** ».

— « **على الدولة أن تعود الى بناء نفسها على أسس جديدة ونحن معها** ».

من هذه العبارة الأخيرة نفهم أنّ تحفّظه ليس على الدولة كدولة، بل على الدولة التي تتنكّر هي لذاتها وتتخلّى طوعاً عن دورها أو تُقصِّر عن القيام بهذا الدور. فالشرعية ترتّب على من يتمتّع بها أن يتصرّف بموجبها ويكون على مستواها، والدولة التي تتخلّف عن أداء ما تفرضه عليها شرعيّتها تفقد هذه الشرعية بعدم استحقاقها لها.

وهو لا يتوانى عن التعهّد بوضع الأداة العسكريّة التي يملكها في تصرّف الدولة عندما تستيقظ هذه على مسؤوليّاتها وتقرّر الإيفاء بها :

« عندما تُقرّر السلطة والجيش أن يستفيقا من سباتهما سيجدان بين أيديهما شباباً مدرَّبين أحسن تدريب ».

وحتى بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان.. عندما سأله ميشيل هونوران رئيس قسم التحقيقات في التلفزيون الفرنسي - القناة الاولى عن السبيل الى تأمين انسحاب الاسرائيليين وعودتهم الى بلادهم أجاب : **« وحدها الدولة اللبنانية القويّة تستطيع تقويم لبنان وإعادة الاسرائيليين الى داخل حدودهم بعد انسحاب السوريين ورحيل الفلسطينيين ».**

طموح لا يُحدّ بأن يرى لبنان دولة لا حدود لارتقائها مدارج العُلى، وهذا يُفسِّر قوله إنّ ما جرى كان حرباً أمّا الثورة فلم تبدأ بعد، الثورة التي هي نفض لبنان عنه لأسماله البالية وارتداؤه ثوب الدولة المتجدِّدة السائرة في ركاب العصر.

اليوم، وبشير الجميل في موقع الفاعل في الدولة والمسيِّر لدفتها، نستطيع ان نقول : « لقد بدأت الثورة ». وهي ثورة لا بدّ من ان يرتاح إليها الطقم القديم من السياسيين الذين ألفوا الدولة « مجبنة » تُهيّء لهم القرص الذي يتناتشونه بسكّينهم، فإنّ نهجاً كاملاً من السلوك السياسي الذي عرفته هذه البلاد منذ الحكم العثماني سيزول مع مجيء بشير الجميل الى الحكم.

إيجاد « لوبي » لبناني

وقد تعدّى طموحه نطاق خلق دولة حقيقيّة في لبنان الى إيجاد قوة ضغط لبنانية في الخارج وخصوصاً في الدول الكبرى ذات التأثير في مجرى القضيّة اللبنانية. فهناك لبنانيّون حلموا بجعل أبناء الإغتراب اللبناني سفراء غير رسميّين لبلادهم حيث هم، وحلموا بتوظيف علاقاتهم ومنزلتهم في الأوساط التي يُقيمون بينها في خدمة مسقط رأسهم الأصلي، لكنّ أحداً لم ينتبه إلى ما في تحويل ذوي المقدّرات والنفوذ من اللبنانيين المغتربين الى قوّة ضغط (لوبي) على بلدان إقامتهم من فائدة حاسمة لمصلحة لبنان غير بشير الجميل الذي قال :

« هناك حاجة لتنظيم الاغتراب اللبناني على اساس علميّ وحديث، لخلق « لوبي » للقضيّة اللبنانيّة في أميركا لأنها مصدر الثقل في الصّراع الدائر في الشرق الأوسط ». ونحن نعلم كم للّوبي اليهودي في الولايات المتحدة من تأثير في جعل السياسة الأميركية منحازة دائماً وأبداً الى اسرائيل.

نظرة عملاقة الى الوطن الذي يريده في حجم طموحات الشعب وأمانيه التاريخية وآمال المستقبل، هذا لأنّ بشير الجميل هو نفسه رجل في حجم هذا الطموح، وهذه الأماني والآمال.

مبادرة الشيخ بشير الجميّل
دستور جديد للبنان

١

على مدى أكثر من شهر، بعد إلقاء خطابه في ذكرى الاستقلال الثامنة والثلاثين : ٢٩ تشرين الثاني ١٩٨١، ظلّت التعليقات تتوالى على المبادرة التي طرحها الشيخ بشير في ذلك الخطاب.. وأصداء هذه المبادرة تتردّد في الأوساط السياسية وغير السياسة في لبنان. (راجع نصّ المبادرة في الجزء الثالث عشر من موسوعة الحرب في لبنان لأنطوان خويري).

وفي خلال هذه المدة كلّها كانت الصحف يوميًّا تحمل رأياً او آراء في هذا الطرح التاريخي. وبقيت أحاديث الناس تتناول الخطاب بعد زمن من إلقائه وكأنه أُلقي قبل ساعة او قبل ليلة، حتى سجّل هذا الحدث رقماً قياسيًّا بين الانباء التي تظلّ جديدة مهما مرّ عليها من الوقت، فلا تتخطّاها الأحداث، ولا يكسوها غبار الأيام.

وهذا، نعيد القول هنا، هو مقياس القيمة الحقيقيّة للرجال.

فهاتوا لنا سياسيًّا غيره تردّدت أقواله في كلّ لبنان كما تردّدت أقوال بشير الجميل :

« نريد رئيساً يكون صاحب رؤية وطنيّة تبلغ حدّ الحلم، لا صاحب شهوة سياسيّة لا تتعدّى حدود الحكم. نريد رئيساً وقف ولو مرّة أمام قبر شهيد. نريد رئيساً يستعمل أفعال الغضب، وأدوات التحذير، وأحرف الرفض، وأسماء الجزم. نريد رئيساً يُصرّف فعل لبنان بصيغة المستقبل ».

وحده بشير الجميّل كان يومها يضرب قدمه في الأرض فتهتزّ الأرض تحت قدمه وتميد، لأنه باسم شعب يقف الموقف الذي يقفه، وباسم وطن يشهر السيف او يلوّح بغصن الزيتون.

وبعد ففي الخطاب – المبادرة أسس ومرتكزات للبنان الجديد لا يمكن لدستور يوضع في المستقبل لهذا الوطن المتجدّد إلّا أن يستلهمها ويتبنّاها كبنود أساسيّة بين بنوده : « **وحدة الأرض. الولاء المطلق للبنان ملازم لوحدته كما الحرية ملازمة لأمن اللبنانيين. رفض المساومات والحمايات. التجرّد عن الحكم ليس مثاليّة، إنّما التجرّد في الحكم هو المثاليّة. إلتقاء اللبنانيين في مقاومة الاحتلال يكفل اتحادهم في دولة تساوي في ما بينهم استناداً الى بذلهم تجاهها** ». وهكذا في هذا البند الأخير، يضع قاعدة أن لا فضل للبنانيّ على لبنانيّ إلّا بمقدار اندفاعه من أجل لبنان.

« صياغة دستورية جديدة لمبدأ التعايش توفّر الأمن والحريّة لمختلف المجموعات الحضاريّة في لبنان، وتُساوي في الواجبات والحقوق بين اللبنانيين انطلاقاً من مميّزات هذا الوطن وتقاليده وأعرافه ».

وبتعبير آخر : « **الأمن والحريّة والعدل لجميع اللبنانيين، في ظلّ نظام ديمقراطي يكفل الحرّيات العامّة للمواطنين والمساواة فيما بينهم** ».

« **خلق مفهوم وطني يجعل الدولة شجرة نزرعها ونعتني بها لا ثمرة نقطفها** ». وينتهي بذلك عهد الدولة المزرعة التي يتزاحم الأزلام والمحاسيب والسماسرة والعملاء والغرباء على استغلالها.. ليبدأ عهد الدولة المجسَّدة للأمّة، هذه التي يتنافس أبناؤها على خدمتها وإعلاء شأنها.

وباسم الذين لا يجرؤون على رفع الصوت، او لا يستطيعون رفعه، يُصرّح عالياً بوجوب انسحاب القوات السورية وضبط الوجود الفلسطيني، ومبادرة الفلسطينيين والسوريين الى تصحيح علاقاتهم مع لبنان، ودخول الجيش اللبناني المناطق اللبنانية المحتلّة. وباسم الأصوات المخنوقة في الصدور يسجّل الحقيقة التي يقولها هو وفريقه اليوم وسيقولها الجميع غداً :

« حين يُكتب التاريخ لن يُقال ان سوريا حافظت على وحدة لبنان بل سعت الى فرز أراضيه ».

وبشير الجميل الذي نُسب إليه اختياره العنف والقتال سبيلاً بدلاً من السعي الى التفاهم السلمي، وهو الذي لم يختر هذا السبيل إلّا مضطراً وبعدما انقطعت كلّ سبل التفاهم إلّا السبيل الانهزامي، سبيل الخضوع والتسليم بالأمر الواقع، بشير الجميل هذا يُعبّر عن حقيقته الأصلية حين يدعو الى :

« اعتماد التفاوض السياسي وسيلة لإرساء صيغة الاتفاق اللبناني »
إذ « لا يعقل ان تكون منطقة الشرق الأوسط ساحة تبادل الحلول السلميّة فيما لبنان وحده يخضع لحلول عسكريّة ».

مبادرة لم يسع ممثّل الرئيس القذّافي في لبنان، صالح الدروقي، إلّا أن يقول عنها أنها تهدف الى خلاص لبنان من محنته (الصحف ٦ - ١٢ -٨١)، كما قال عنها سفير الكويت الشيخ عبد الحميد البعيجان، عضو لجنة المتابعة العربية على مستوى السفراء، « انها **تعكس نيّات رجل يتحرّق من أجل مصلحة بلاده، وفيها رغبة للخروج من الأوضاع السائدة والوصول الى عودة سيطرة الدولة اللبنانية على كلّ أراضيها ».** (**الصحف : ٣ - ١٢ - ١٩٨١**) وهما طبعاً شهادتان غير متحيّزتين، ولا يحدو صاحبيهما على إطلاقهما غير الصدق وقول الحقيقة. حتى ان السفير البعيجان زاد على ما قاله ان هذه المبادرة، إذا أُضيفت الى مقرّرات لجنة المتابعة، يمكن أن تصبح هيكلاً للوفاق الوطني وطريقاً الى عودة الأوضاع في لبنان طبقاً لطموحات شعبه وأمانيه. وهكذا وضع سفير الكويت مبادرة الشيخ بشير الجميل في مستوى مقرّرات لجنة تمثّل الجامعة العربية ودولها مجتمعة.

أمّا سفير البحرين، السيد محمود عبدالله بهلول، فقد كان له تعليق مسهَب قال فيه : « **إن مبادرة الشيخ بشير الجميّل ممتازة وتستحقّ الدراسة ومناقشتها في دقّة. وليس فيها ما يوقف مسيرة الوفاق، بل ما يشجّع على تحقيق هذا الوفاق** ». (الصحف : ١٨ - ١٢ - ١٩٨١)

وعلى صعيد تعليقات الشخصيات الإسلاميّة اللبنانية على المبادرة نجد الرئيس عادل عسيران، وبينه وبين « الجبهة اللبنانية » والكتائب كثير من التباين في وجهات النظر عبّر عنه في ندوته التي عقدها مع الوزير جوزف ابو خاطر ضمن برنامج « برلمان الشعب » في « بيت المستقبل » مساء يوم ٢١ - ١١ - ١٩٨١، يشهد بـ « **أنّ كلّ النقاط التي ذُكرت على لسان الشيخ بشير الجميّل تقع في نطاق وجود الدولة اللبنانية. فكل دولة يجب ان يكون لها مقوّمات كالجيش أوّلاً، والعدل ثانياً والاقتصاد السليم ثالثاً، والسيادة اللبنانية تتطلّب ألّا يكون على الأرض اللبنانية غير اللبنانيين** ». (الصحف : ٢ - ١٢ - ٨١)

وبالرغم من الملاحظات التي أبداها الرئيس رشيد كرامي على مضمون الخطاب - المبادرة فقد وجد فيه « **تطوّراً ملحوظاً في التفكير والرؤية في ضوء واقع يجب ان يكون هو المقياس والمرشد للوصول الى الصيغة التي نراها ضماناً لوحدة لبنان وسيادته** ». (الصحف : ١ - ١٢ - ٨١)

وزير الصحة الدكتور نزيه البزري أعرب عن اعتقاده بأن هذه المبادرة تهدف الى ايجاد السبل المؤدّية الى تخطّي الأزمة اللبنانية.

والأمير مجيد ارسلان قال : « **إنه خطاب إيجابي، ونحن نؤيّد كلّ عمل وطنيّ حرّ يعود بالخير على لبنان، وكلّ خطوة تؤدّي الى الحوار والوفاق الوطني البنّاء** »، فيما نجله الأمير فيصل أرسلان وصف « كلمة الشيخ بشير » بأنها « **تضمّنت برنامج عمل فيه نقاط تستحقّ البحث بجدّية وبروح بنّاءة للوصول الى قناعات مشتركة تكون جامعاً بين اللبنانيين، وطريقاً ترسم ملامح المرحلة المقبلة سياسيًّا وأمنياً** ». (**الصحف : ٣ - ١٢ - ٨١**)

النائب الدكتور زكي مزبودي وجد « **في الطرح الجديد ظاهرة لكونها تدلّ على تحوّل في العمق ورغبة في الخروج من النفق المظلم مع بقاء باب الحوار والمناقشة مفتوحاً** »، بينما زميله النائب سليمان العلي اعتبر المبادرة « **خطوة مهمّة وقابلة للدرس والمناقشة** ».
(**الصحف : ٣ - ١٢ - ٨١**).

وفي رأي وزير العمل والشؤون الاجتماعية الدكتور عبد الرحمن اللبّان « **أنّ من اطّلع على هذه الطروحات يجد فيها مشروع ورقة عمل صالحة لتُطرح على اللبنانيين من منطلَق المسؤولية** »، مضيفاً أنّها طروحات شاملة نوعاً ما، وأنّ هذه المبادرة هي بداية صالحة يأخذها اللبنانيون في عين الاعتبار، ويجب أن تُطرح على المداولة.

هذا في حين اعتبر النائب سليم الداود « **المبادرة خطوة مهمّة تساعد على البدء بالحوار وتلاقي اللبنانيين، والطروحات التي أعلنها الشيخ بشير الجميل جيّدة جدًّا وتتضمّن مسلّمات عدّة مقبولة لدى كل اللبنانيين** ». (**الصحف : ٩ - ١٢ - ٨١**)

ومن ناحيته النائب حميد دكروب لم يشكّ « **في أنّ النيّة الطيّبة هي في منطلق المبادرة الجديدة التي أعلنها الشيخ بشير الجميل** ».
(**الصحف : ٩ - ١٢ - ٨١**).

والنائب كاظم الخليل لم يتردّد في القول ان الشيخ بشير « **كان صريحاً ويعرف ماذا يريده هذا البلد، وعبّر عن ذلك بأفضل أسلوب، وانّ ما ما اقترحه جدير بالاهتمام وقابل للبحث والمناقشة** »، معرباً عن اعتقاده بـ « **أنّ الكثيرين من أبناء هذا البلد يأخذون به، وأكثر من ذلك، اذا كانت لبعضهم حرية الرأي، فالأكثريّة من الشعب هي الى جانبه** ». (**الصحف : ١ - ١٢ - ٨١**)

أمّا النائب حسين منصور فوصف المبادرة بـ « **أنّها خطوة شجاعة وجريئة وتنطوي على مواقف إيجابيّة نأمل في أن يتجاوب معها الفرقاء المعنيّون للبدء في الحوار الهادف الى التفاهم على الأمور والقضايا الوطنية المصيريّة** ». (**الصحف : ١٠ - ١٢ - ٨١**) ونلاحظ هنا دعوة النائب منصور الى التجاوب مع هذه المبادرة، ممّا يجعلها في نظره نداء مخلصاً يجب ألّا يُقابل بالتجافي عنه والإعراض. فكأنه يقول إنّ حسن النيّة بدر من الشيخ بشير الجميل، وبقي أن يبدر حسن النيّة

من الفريق الآخر ليتمّ الوفاق اللبناني.

ودعا النائب عبد اللطيف بيضون ايضاً الى التجاوب مع المبادرة بقوله : « **إنّ مبادرة الشيخ بشير الجميل اذا حظيت بقبول كل الأفرقاء فهي تساعد، واذا جُوبهت بنفور عند بعضهم فهي آنذاك لا يمكن أن تساعد على الحوار. إلّا أنّ التمنّيات التي وردت (فيها) لجهة سيادة الدولة والشرعية هي تمنّيات كلّ نائب وكلّ لبناني، ونحن نؤيّد إعادة بسط سلطة الدولة على كلّ شبر من أرضها** » (الصحف ٨ - ١٢ - ٨١)

وأشار النائب علي العبدالله الى « **أنّ كلّ مبادرة تحمل اتفاقاً بين اللبنانيين هي بادرة خير، ويجب درسها انطلاقاً من روح محبة وإنسانية ولبنانيّة خالصة وصادقة. وما من شك في أنّ هذه المبادرة تُشكّل بداية حوار، ونحن مع كلّ ما تضمّنته لمصلحة لبنان ولمصلحة بنيه** ».

وقال النائب صبحي ياغي : « **ما من شكّ في أنّها مبادرة ممتازة، وأتمنّى أن تكون هذه النيّات لدى الجميع لنخلص من المأزق الذي نحن فيه. ولا شكّ أيضاً في أنّ هذه المبادرة هي بداية ممتازة للحوار.** »

وركّز النائب بشير الأعور على أنّ الأسلوب المتّبع تنفيذاً لما يُطرح هو الأساس، لكنّه رأى « **أنّ الطروحات التي تقدّم بها الشيخ**

بشير الجميل تساعد كثيراً على بدء حوار قد يؤدّي الى نتائج إيجابيّة، ولا شكّ في أنّها قابلة للنقاش والدرس ».

ورأى النائب صالح الخير « **أنّ مبادرة الشيخ بشير الجميل تُشكّل منعطَفاً مهمّاً، وخطوة مهمّة، ونقطة تحوّل تساعد على بدء الحوار اللبناني** ». (**الصحف ٨ - ١٢ - ٨١**).

والدكتور محمد المغربي رأى اخيراً « **أنّ القواعد الأساسيّة للمبادرة سليمة وأنّ الخطاب اتصف بالاعتدال والايجابيّة والوضوح والمسؤولية، وهي صفات قلّما تتوافر في بيانات السياسيين والمسؤولين اللبنانيين في هذه الأيام. فهو من هذه الناحية ظاهرة منعشة وتبعث على الأمل في أن يُبادر الى محاكاتها سواه من اللبنانيين ». واعتبر الدكتور مغربي هذه المبادرة « منفتحة وقابلة للمناقشة، ممّا يؤلّف دعوة الى حوار وطني جديد يحلّ محلّ الاحتكام الى السلاح** » (**الصحف ١ - ١٢ - ٨١**).

كانت هذه تعليقات إيجابيّة كلّها من الفريق المسلم في لبنان، ومعظم أصحابها تبتعد منطلقاتهم السياسية عن منطلقات الشيخ بشير الجميل. أمّا تعليقات الهيئات والشخصيات المسيحية، وبعضها لا يدين بنظرة « الجبهة اللبنانية » والكتائب الى الوضع اللبناني الحاضر، او هو حياديّ بين أفرقاء الصراع، فقد أتت إيجابيّة أيضاً ودالّة على الوقع الطيّب الذي أحدثته مبادرة الشيخ بشير في النفوس على مختلف توجّهاتها وانتماءاتها، وعلى عمق التقدير الذي لقيه صدقها وجدّيتها وإخلاصها

والرؤية المدروسة المتكاملة التي انعكست فيها.

الرئيس كميل شمعون قال عن الخطاب - المبادرة « **إنّه خطاب غير عاديّ بل خطاب - برنامج ! ثم إنّ النقاط التي وردت فيه تستحقّ الدرس والاهتمام، فهناك نقاط يمكن أن تحظى بموافقة فوريّة من الجميع** » (الصحف ٣ - ١٢ - ٨١)

والرئيس شارل حلو اكتفى من الخطاب - البرنامج بأنّه « **يرفع القضيّة اللبنانية الى مستوى فكري ووطني يُشجّع على الحوار البنّاء والتلاقي والتفاهم بين الأسر اللبنانية المختلفة، ويُفسح في المجال للتفاوض العملي مع كلّ الأطراف على الساحة اللبنانية** ». وأضاف الرئيس حلو : « **انّ هذا الخطاب نقل المعركة من الميدان العسكري الى إطارها السياسي الديمقراطي، وأنَّ ما سرَّه كونه لاقى حدًّا من التجاوب حتى عند بعض من لا يُشاطرونه الرأي كليًّا، إذ لا يستطيع احد أن يتجاهل ما احتواه من اقتراحات عمليّة إيجابيّة تهمّ كل اللبنانيين.** (الصحف ٣ - ١٢ - ٨١)

وعلى المستوى الوزاري أبدى وزير الإعلام ميشال إدّه « ملاحظة سريعة »، كما سمّاها، على الخطاب مؤلّفة من ثلاث نقاط هي :

١ - إنّ خطاب الشيخ بشير هو مبادرة ومساعٍ لمباشرة الحوار السياسي المنشود.

٢ ـــ **إنّ الخطاب يُعتبر نقطة تحوّل من المجال العسكري الى المجال السياسي.**

٣ ـــ **إنّ الشيخ بشير أبدى استعداداً للحوار البنّاء مع كل الأطراف الموجودين على الساحة اللبنانية.**

وعلّق الوزير إدّه على النقطة الثالثة بقوله :

« **إن للمبادرة، من هنا، أهمّية أكيدة، وآمل في أن ينظر إليها الأفرقاء كافّة من هذا المنظار** » (الصحف : ٣ - ١٢ - ٨١)

أمّا الوزير قيصر نصر فقال : « **إنه خطاب - برنامج وخطاب - وثيقة، يكشف الحقائق كاملة ويرسم في وضوح سمات رأس الهرم، اي رئيس الجمهورية المقبل، والخطوات الأساسية للبنان الغد.. بجرأة وصفاء ذهن وضمير. وهو يُشكّل في مضامينه مقترحات صريحة لحلّ القضيّة اللبنانية حلّاً شاملاً، ويُعتبر مبادرة صادقة يجب التحاور على أساسها. ولا بدّ من الإشارة الى أنّ قائد القوات اللبنانية أظهر أنّه ليس قائداً عسكريًّا للمقاومة اللبنانية فحسب، بل هو ايضاً رجل سياسي ذو رؤية واقعيّة ومحقّة** ».
(الصحف : ١ - ١٢ - ٨١)

والوزير ميشال المرّ اعتبر المبادرة « **جريئة وواقعيّة يُمكن أن يؤخذ بها لتكون أساساً صالحاً لحلّ القضيّة اللبنانية** ». (الصحف : ٢ - ١٢ - ٨١)

والوزير خاتشيك بابكيان أعرب عن أمله في أن يكون مضمون

الخطاب « **مدار بحث ومناقشة لدى الجميع نظراً الى أهميّته وموضوعيّته وما تناوله من قضايا ومواضيع وطنيّة مهمّة جداً** ».

(**الصحف** : ١ - ١٢ - ٨١)

وأمّا الوزير جوزف سكاف فقد أظهر ارتياحه لما جاء في الخطاب « **تركيزه على وجوب الالتفاف حول الشرعية وعودة سيادة الدولة الى جميع الأراضي اللبنانية، وعلى طرح البندقية جانباً ليتلاقى اللبنانيون على أفضل صيغة للعيش المشترك** ». اذ إنّ كلمة الشيخ بشير كانت « **دعوة الى إنهاء الصراع المسلّح وإحلال الحوار والعمل السياسي مكانه، ومدّ اليد الى جميع الأطراف من أجل نبذ الخصام وبناء الدولة القويّة** ».

وعلى الصعيد النيابي، وصف النائب رائف سماره الخطاب بأنه « **هامّ جدًّا ويعكس طموحات الرأي العام اللبناني وأمانيه.. وواقع الوضع في لبنان** »، وأعرب عن تقديره لقائد القوات اللبنانية ووطنيّته وإخلاصه وتفانيه في خدمة لبنان.

ووصف النائب نديم نعيم خطاب الشيخ بشير الجميل بأنه « **رائع ويُشكّل ورقة عمل وبرنامجاً متكاملاً للمرحلة المقبلة وخطّة لحلّ الأزمة اللبنانية** »، معرباً عن أمله في أن تلاقي هذه المبادرة النجاح. وأضاف « **إنني أعتبر مبادرة الشيخ بشير يداً ممدودة للطرف الآخر**

تدعوه للمصافحة وتقول له « أنت أخي، أمدّ لك يدي فمدّ يدك لي لكي نتفاهم ». (الصحف ١ - ١٢ -٨١.)

وقال النائب سليم المعلوف : « إنني أعتبر أنّ هناك الكثير من الايجابيّات في طروحات الشيخ بشير الجميل، أتمنّى أن يُؤخذ بها لبدء حوار عملي وفعّال للخروج من المحنة - المأساة » (الصحف : ١٠ - ١٢ - ٨١).

أمّا النائب جبران طوق فلم يشكّ « في أنّ خطاب الشيخ بشير الجميل موضوعيّ وصريح وقد وضع النقاط على الحروف، وأنّ المبادرة التي أعلنها تُشكّل برنامجاً عمليًّا يستحقّ الدراسة من الدولة والأفرقاء الموجودين على الساحة اللبنانية ويُساعد على إقامة حوار جدّي وبنّاء ». (الصحف : ١٠ - ١٢ - ٨١)

واعتبر النائب بيار دكّاش المبادرة « محاولة جديدة لوضع السلاح جانباً والاحتكام الى الرأي السياسي » ورأى أنّ أهميّتها تكمن في أنها « تأتي من قائد القوات اللبنانية وهي تعني الانفتاح الكامل والتعاون والتعاضد بين اللبنانيين ». وتمنّى أن يُمسك الأطراف بهذه المبادرة ويعتبروها : « دعوة الى الحوار والوفاق والتلاقي بروح إيجابيّة وبنّاءة » (الصحف : ٣ - ١٢ - ٨١)

ورأى النائب بطرس حرب أنّ طرح الشيخ بشير الجميل « قد يكون إحدى المحاولات الجدّية للخروج من الدوّامة التي يدور فيها

لبنان منذ سنوات ». وأنّ « ما يلفت في مضمون هذا الطرح كونه جاء معبّراً عن معاناة عاشها الشعب اللبناني بأسره، إذ لم يرتدِ طابع الفئويّة او المواقف المتصلّبة غير القابلة للنقاش والحوار، وهذا يُضفي على ما أُعلن صفة الجدّية والموضوعيّة والوطنيّة ولا بدّ من أن يُرحّب بها كلّ مواطن ». وختم قائلاً : « إنني آمل في ألّا نفوّت فرصاً ثمينة كهذه الفرصة، فنحاول الاستفادة منها وتوظيفها لمصلحة لبنان ».
(الصحف : ٦ - ١٢ - ٨١)

وأعرب النائب منير ابو فاضل عن أمله في « أن تكون المبادرة فرصة لكلّ الأطراف للبدء في بحث الأمور مليًّا ».(الصحف ٢ - ١٢ -٨١)

وقال النائب اوغوست باخوس : « تلك كانت أمنيتنا في خلال فترة معاناتنا للأحداث في لبنان : أن تُفتح القلوب في صراحة ومحبّة وأن تُطرح القضايا من دون مواربة ومداهنة، وأن تُحدّد المواقف وتُرسم معالم لبنان المستقبل. والرجل الطارح يُمثّل من يُمثِّل، وصرخته الدّاوية عن إخلاص وجرأة يجب أن تُقابَل الصراحة بمثلها، والإخلاص بما يُعادله ». (الصحف :٩ - ١٢ - ٨١)

شخصيّات روحيّة ومدنيّة كبيرة ايضاً كان للمبادرة صداها البالغ لديها.. في طليعتها بطريرك السريان الكاثوليك اغناطيوس انطون الثاني الحايك الذي قال : « إنّ المبادرة السلمية التي طرح خطوطها الشيخ بشير الجميل تُشكّل حافزاً ومنعطفاً مهمّاً في الظروف

المصيريّة التي يمرّ فيها الوطن اللبناني، وتعتبر خطوة إيجابيّة شجاعة وصريحة »، مضيفاً « أنّ دعوة قائد القوات اللبنانية اللبنانيّين الى الحوار وإعادة اللحمة الى ابناء الوطن الواحد تعكس رغبات الشعب اللبناني في الوحدة والتعاون والتآلف والعمل سوية لإنقاذ لبنان من محنته الأليمة ». (الصحف : ١٨ - ١٢ - ٨١)

ونقيب الصحافة المغفور له فريد ابو شهلا قال : « إنّ أبرز ما يُلفت في خطاب بشير الجميل أنّه تعبير عن وجهة نظر جيل المسؤولين الشباب على الصعيد الحزبي، ورأيه يعكس رأي قطاع لا يُستهان به من الشعب اللبناني. لهجته جريئة ومعتدلة في آن. والنقطة الأساسية في الخطاب هي لهجته التي تحمل الكثير من التفاؤل بالنسبة الى التقاء جناحَي لبنان المسيحي والمسلم، والعودة الى الينابيع التي انبثق منها الاستقلال اللبناني والتعاون بين طوائفه المسيحيّة والمحمّدية طيلة ٣٥ عاماً. (الصحف : ٦ - ١٢ - ٨١)

وقال نقيب المحرّرين ملحم كرم : « إنّ المبادرة التي أعلنها الشيخ بشير الجميل تتضمّن إيجابيّات كثيرة، وفي طرح قائد القوات اللبنانية مسلّمات لا يختلف عليها إثنان ولا يرفضها أيّ لبناني مخلص، وأهمّها فتح الحوار بين أبناء الوطن الواحد والإبقاء على تعريب القضيّة اللبنانية. ويرمي الطرح الى تحويل الأزمة اللبنانية من الإطار العسكري الى الإطار السياسي، والمطالبة برئيس جمهوريّة قوي وقادر،

والمحافظة على لبنانية الجنوب.. والوصول الى جوّ من الثقة بين اللبنانيين والفلسطينيين في ظلّ السيادة اللبنانية المطلقة » وختم : « إن المبادرة تعبّر عن أماني الشعب اللبناني الذي رحّب بالاقتراحات المعلَنة ودعا الى تبنّيها ووضعها موضع التنفيذ في سياق مسيرة مخلصة لإنقاذ لبنان ». (الصحف : ٦ - ١٢ - ٨١)

وكما عبّرت السلطات الصحفيّة، بشخص نقيبَي الصحافة والمحرّرين، عن رأيها في المبادرة عبّرت عن رأيها فيها السلطة التي تُمثّل السواعد العاملة في لبنان، أي رئيس الاتحاد العمّالي العام السيد جورج صقر الذي قال : « **أُعجبت كثيراً بالخطاب، ولا شكّ أنّ في البرنامج الذي تناوله يصلح للمناقشة والدرس إذ إنّه تضمّن نقاطاً جوهريّة وواقعيّة للغاية، وهي ليست مفروضاً فرضاً بل جاءت كورقة عمل نعتبرها مهمّة لتلاقي اللبنانيين عليها ومناقشتها بغية التوصّل الى حلول يقبل بها جميع المخلصين لقيام لبنان واستقلاله وعزّته وكرامته** ». (الصحف :١ - ١٢ - ٨١).

وكان للهيئات، الى جانب الاشخاص، رأيها في مبادرة الشيخ بشير، فها هو « تجمع المثقّفين المسيحيّين في لبنان » يُصدر بياناً بخصوصها يعتبر فيه « **التوجّه الجديد خطوة عمليّة منطقيّة تسعى جدّيًا الى إيجاد مخرج سليم للأزمة يوفّر الأمن والطمأنينة للمواطنين اللبنانيين. وقد توقّف التجمّع مطوّلاً عند النداء الذي أطلقه قائد القوات اللبنانية الى كلّ الأطراف لوقف إطلاق النار واللجوء الى**

الوسائل السياسية السليمة لحلّ النزاعات، واعتبر هذا النداء موقفاً مبدئيّاً يُبيّن الوجه الحضاريّ والديمقراطي للمقاومة اللبنانية »
(الصحف : ١٠ - ١٢ - ٨١)

وهكذا نرى، من مجموع هذه التعليقات، أنّ مخالفي الكتائب والشيخ بشير في الرأي العقائدي والسياسي، والحياديّين... والملتقين لبنانياً مع الكتائب وقائد القوات اللبنانية، قابلوا هذه المبادرة مقابلة مخلصة ولم يجرّب البعيدون عن صاحبها في التفكير والرؤية أن يُشوّهوا ما فيها من إيجابيّة وانفتاح وصدق واعتدال واتجاه الى الحوار والتعاون. وحدهم جماعة « الحركة الوطنية »، المعروفون بتهرّبهم المقصود من كلّ ما يؤول الى التقارب ويمدّ جسوراً للتفاهم بين الطرفين المتنازعين في لبنان، هم الذين جعلوا أبيضها أسود واستخرجوا منها خلاف ما ترمي إليه، جرياً على نمطهم المألوف في تفسير كلّ ما يصدر عن الطرف اللبناني تفسيراً سلبيّاً ولو كان قصده الطيّب ظاهراً وواضحاً للعيان، ولو كان المنطق الذي يدعم به حجّته ساطعاً لا يُردّ. فكأنّ هذه « الحركة الوطنية » تخاف نهاية للأزمة والاقتتال بين اللبنانيين لأنها « الفريق المتضرّر » من هذه النهاية، وتعمل على إحباط كلّ المحاولات الرامية الى وضع حدّ لتمزّق هذا الوطن وذوبانه على مذبح المصالح الخارجيّة الكبيرة والمصالح الداخليّة الصغيرة والرخيصة للفريق المحلّي السائر في ركاب المخطّطات الأجنبيّة والمؤامرة على لبنان. وهكذا « يُكلّمونها بالشرق فتردّ بالغرب »، ويأتونها بكلّ حقيقة دامغة على عدم صحّة ما تنعت به

المدافعين عن لبنان.. فتُدير الأذن الصمّاء وتستمرّ في النقر على وتيرتها التي لا تتغيّر.

من هذا المنطلق كان ردّ فعل « اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعي اللبناني » على المبادرة أنّها « **تكشف عن الحدّين الأقصى والأدنى للمشروع الكتائبي – الفاشي. فهي في حدّها الأقصى ان يصل الشيخ بشير الجميل بشخصه وبرنامجه الى رئاسة الجمهورية، وهي في حدّها الأدنى ترفض إجراء انتخابات رئاسة الجمهورية** ». وربطت اللجنة بين المبادرة وورقة العمل اللبنانية الى مؤتمر فاس، إضافة الى جولة المبعوث الأميركي والتهديدات الاسرائيلية. (**الصحف** : ٦ - ١٢ - ٨١)

ومن هذا المنطلَق أيضاً صدرت « الملاحظات السريعة » للحزب التقدمي الاشتراكي، في جريدته « القرار »، على المبادرة.. فأتت كما يلي : « **إنّ خطاب الشيخ بشير الجميل هو بمثابة إعلان خطّة محدودة الأهداف والوسائل تتنافى مع وجود أيّة خطّة أخرى أو مشروع آخر، أي انّ هذه الخطّة مطروحة للتنفيذ بكلّ مبادئها وشروطها من دون الاهتمام بأفكار وطروحات الفريق الوطني اللبناني، ومن دون أن تلحظ إمكان أيّ تسوية معه** » (**الصحف** : ٦ - ١٢ - ٨١)

ولم يختلف تعليق السيد إنعام رعد، رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي، في روحيّته عن التعليقَين السابقَين، إذ قال : « **يمكن اعتبار الخطاب التصعيدي للسيد بشير الجميل والانفجار التخريبي في**

دمشق، مقدّمات للخطة الأميركية - الاسرائيليّة - الرجعيّة التي تستهدف ضرب قوى الصمود. ويأتي هذا الخطاب ليؤكّد عقم أيّ رهان على إمكان خروج القوى الانعزاليّة من قبضة المخطّط المعادي، ويسدّ الأبواب والنوافذ في وجه مساعي الوفاق الوطني مع هذه الفئة ». (الصحف : ١ - ١٢ - ٨١). (دائماً « رجالات » الحركة الوطنية يصفون كلّ خطوة نحو التقارب بأنّها تسدّ سبل الوفاق، ويجعلون دائماً هذا « الانسداد » قاطعاً ونهائياً لا مجال لفتح « ثغرة » فيه من بعد).

ويظهر أنّ كلّ « حركة » تُلحق باسمها صفة « الوطنية » بشكل من الأشكال تأتي على صورة « الحركة الوطنية » ومثالها، فها هي « حركة الضمير الوطني » تُعلن، بلسان أمينها العام المحامي عبدالله الغطيمي، أنّها، أطّلعت على خطاب الشيخ بشير الجميل الذي عرض فيه اقتراحاته لحلّ الأزمة اللبنانية وقرّرت ان توضح وجهة نظرها وفقاً لما يلي :

« ـــ فيما يتعلّق بالبند الأوّل الذي أشار الى استرداد السيادة، ترى الحركة أنّه كان على الشيخ بشير أن يُطالب الحكم بالتحرّك عربيّاً ودوليّاً تحرّكاً ثائراً لتأمين هذا الاسترداد من اسرائيل التي هي وحدها المحتلّة، باعتبار أنّ غيرها موجود بموجب اتفاقات ومقرّرات.

ـــ وفيما يختصّ بالبند الثاني القائل بعودة القوات السورية

الموجودة في لبنان، فإنّ الحركة تعتقد أنّ مثل هذا الإجراء الخطير يجب أن يُترك أمر تقدير اتّخاذه لرئيس الجمهورية في ضوء المعطيات التي تجنّبه الوقوع في المزالق، وتؤيّد الشيخ بشير في مطلبه إبقاء لبنان مصدر طمأنينة لسوريا. (في طمأنينة سوريا فقط تؤيّد الحركة الشيخ بشير).

ـ وبالنسبة الى البند الثالث فإنّ إعادة الثقة بين المقاومة الفلسطينية وبعض الفئات اللبنانية لا يمكن تحقيقها إلّا بمؤازرة الثورة مؤازرة ترتكز على اعتبار اسرائيل العدوّ الرئيسي للبنان » (**الصحف : ٨ - ١٢ - ٨١**)

خارج « الحركات »، من « وطنيّة » وذات « ضمير وطني »، لم يرتفع ضدّ المبادرة صوت غير صوت سليم الحصّ الذي لم يُصبح « وطنيّاً متطرّفاً » إلّا بعد تركه مقعد الرئاسة الثالثة، بحيث دلّت مواقفه وتصريحاته منذ ذلك الحين على أنّه غدا موتوراً. وإذا كان في الردود التي أوردناها أعلاه ما يستحق إثبات شيء منها فلا نرى في الردّ الحصيّ ما يستأهل الوقوف لحظة عنده، فنتجاوز عنه رحمة بالبقيّة من سمعة صاحبه نفسه.

ولقد كان السيد ابراهيم قليلات، رئيس حركة الناصريين المستقلّين - المرابطون، أكثر تعقّلاً ورصَانة من بقية جماعة « الحركة الوطنية » عندما قال انه ليس في الضرورة التعجيل بردّ صحفي إعلاميّ على المبادرة يكون محكوماً بالتسرّع ولا سيّما أنّنا نتحمّل مسؤولية

مواجهة قضايا مصيريّة مطروحة لمعالجة مستقبل وطننا أرضاً ونظاماً وانتماءً ».

هذا في حين أنّ منير الصيّاد، المسؤول السياسي للاتحاد الاشتراكي العربي - التنظيم الناصري، كان أشجع من السيد قليلات وأكثر « وفاء » للردع والمقاومة، عندما « لاحظ » أنّ مبادرة الشيخ بشير، « التي تأتي مباشرة بعد مشروع الأمير فهد، لا تُشكّل انقلاباً في الموقف الكتائبي او تحوّلاً نوعيّاً يستحقّ التوقف عنده ما دامت التصوّرات التي طرحها في سياق العداء لدور قوات الردع العربية ضلاً عن شروطه المرفوضة في شأن طبيعة العلاقة مع المقاومة ».



بشير الجميّل وزوجته صولانج توتنجي

بشير الجميّل الوجْه العَالمي

مثلما فعلت الجوانب الفريدة في شخصيّة بشير الجميّل فعلها لدى الرأي العام اللبناني فعلت فعلها أيضاً، هي والوقفة التي وقفها، لدى الرأي العام العالمي، حتى أصبح له، حسب التعبير الأجنبي، « قامة دوليّة » – (Stature internationale). فهو الذي تخصّص الصحف والمجلّات الأجنبيّة حقولاً فيها لأحاديثه او للتحدّث عنه، وتفرد إذاعات العالم ومحطّات التلفزيون الكبرى أجزاء من برامجها لمقابلات معه او للتركيز عليه في سياق ما تعرضه عن الأزمةاللبنانية.

لقد سمّاه التلفزيون الفرنسي « **المنتصر الأكبر في تجربة القوة.. وإحدى الشخصيات الأقوى على الساحة اللبنانية** »، وتوجّهت إليه السيدة فوركاد، عضو وفد المقاومة الفرنسية في اثناء الحرب العالمية الثانية الذي زار لبنان في العام ١٩٨٠، بقولها : « **أعرفك الآن جيّداً لأعتقد بأنّك من طينة سان جوست الذي يمكن أن نقول عن لسانه : « مَن يُقاوم نصف مقاومة يحفر قبره بيديه ». ستذهب الى نهاية الطريق**

الذي يزهر وعوداً، ونتمنّى أن نكون إلى جانبك في هذه الطريق الشاقة ».

أجل، لقد خلق تيّار بشير الجميل تضامناً معه من جانب الفئات التي مرّت بتجارب مماثلة لتجربته في أنحاء العالم.. وجميع الأوساط المتمسّكة بمفاهيم الحريّة والعدالة وحقّ تقرير المصير، فزحفت وفودها إليه، لدى زيارتها للبنان، تُحيّي فيه رمزاً جديداً لمقاومة الاضطهاد والطغيان يُضاف الى الرموز التاريخيّة في هذا المضمار التي ليس سان جوست سوى واحد منها.

فهذا البروفسور فرانسوا لوشير، رئيس وفد حركة الراديكاليّين الفرنسيّين الى لبنان، يُصرّح إثر لقائه بالشيخ بشير قائلا :

« ترك لقاؤنا والشيخ بشير انطباعاً خاصّاً لجهة قوّة إرادته وشجاعته وقدرته على العمل المنظّم وما له من تأثير فعّال في تحوّل الشبيبة اللبنانية، ممّا يجعلنا نستبشر بمستقبل هؤلاء الشبّان الذين يتميّزون بالديناميكيّة المنظّمة، كما نستبشر بمستقبل أفضل للبنان بكامله ».

هذا بالنسبة الى الوفود التي زارت لبنان، أمّا وسائل الإعلام في الغرب نفسه فلم تُسلّط ضوءاً على زعيم بمفرده من البارزين على مسرح الأزمة اللبنانية بمقدار ما سلّطت على قائد القوات اللبنانية.. أللّهمّ سوى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، بالنظر للدور الذي لعبته هذه المنظّمة في أحداث لبنان، وفي مسألة الشرق الأوسط عموماً التي لولبها القضية الفلسطينية.

لقد أوسعت جريدة « الموند » الفرنسيّة العالميّة، في صدر عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٩/٥/٢٢، لمقال من بشير الجميل خاطب فيه، بلهجة نبويّة، الغرب المنحدر عن منزلته الروحيّة السابقة، فكانت هذه الكلمات :

« من عندنا سينطلق، يوماً، تجدُّد الغرب المسيحي. فتطرُّفنا الزائد، وخروجنا عن كلّ حدّ (بهذه الأوصاف يتكلّمون عنا في الغرب) لا يُوازيهما غير إيماننا الوطيد بمصيرنا وبتصميمنا الشرس على أن نبقى أحراراً. هذا هو المعنى العميق لقتالنا. ولهذا السبب، بعيداً عن أن نكون بالنسبة الى المسيحيّة الغربيّة، بيزنطية أخيرة، كما يُقال عنّا أحياناً، نشعر بأنّنا سنكون لروح الغرب « أورشليمها الجديدة ».

وعندما يُفسح في صفحات « الموند » لمقال بكامله من كاتب أجنبي فهذا يعني، بالنسبة لها، إعطاء أهميّة كبيرة للكاتب وللموضوع معاً. وهكذا أكسب موقف بشير الجميل لا شخصه فقط، بل وقضيته أيضاً، أهميّة دوليّة حتى باتت من أُولى المواضيع التي تُعنى بها المحافل والأوساط الكبيرة في الخارج.

وكما أوسعت صفحات « الموند » لمقاله أوسعت، في عدد آخر، لمقال عنه بقلم جان غيراس موجه توجيهاً واضحاً ضدّ عمل بشير الجميل وتوجّهاته، ومع ذلك فان هذا المقال الطويل المخصَّص كلّه

عنه يدلّ على المكانة التي له في الخارج والتي يقرُّ بها اعداؤه من حيث لا يريدون.

أمّا جريدة « **الفيغارو** » الفرنسيّة، التي لا تقلّ شأناً عن « الموند »، فقد نشرت في عددها تاريخ ١٩٧٩/٥/٢ مقالاً كتبه لها الشيخ بشير حول مسأله تقسيم لبنان وقال فيه :

« إنّ تهمة العمل للتقسيم كانت لمدة طويلة إحدى الذرائع الكبرى التي أطلقتها الدعاية السورية - الفلسطينية لتحارب بها المقاومة اللبنانية. والحال أنّ أحد أهداف هذه المقاومة، الذي مات في سبيله عدّة آلاف من شبابنا، كان بالضبط معاكسة هذا المشروع بمنع ضمّ أيّة قطعة من أرض الوطن الى سوريا او قيام دويلة فلسطينيّة عليها ».

فهذا منبر عالميّ، بشخص جريدة « **الفيغارو** » يتطوّع لتوضيح صورة المقاومة اللبنانية بالرغم من انحياز الإعلام الخارجي بوجه عام الى جانب المؤامرة المحاكة ضدّ لبنان.

ومن فرنسا الى كندا.. لنقرأ في جريدة « **الواجب** » الصادرة هناك، عن « الرجل القوي الجديد في لبنان المسيحي »، قولها :

« بشير الجميل، البالغ الثالثة والثلاثين من عمره، قلب رقعة الشطرنج السياسي اللبنانية رأساً على عقب. وإنّنا لنراه في كلّ مكان : على خطّ النار، في الاجتماعات السياسية، في الاجتماعات

الهادفة الى إعطاء التعليمات العسكرية او في دمشق للتفاوض مع السوريين. وقد تصاعد نفوذه بسرعة لدى الشبّان المسيحيّين، وغدا، لدى وفاة قائد الميليشيات الكتائبيّة وليم حاوي في تموز ١٩٧٦، قائداً لهذه الميليشيات وقائداً للقوات المسيحيّة الموحَّدة، فقام بتنظيم الميليشيات الجديدة التي نَمَت في أربع سنوات نموّاً كبيراً.

ماذا سيفعل بقوّته هذه ؟ إنّ الأفكار السياسية للسيّد بشير الجميّل بسيطة وقويّة : لبنان يحتلّه جيش غريب هو الميليشيات الفلسطينيّة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينيّة، فينبغي طرده. وبانتظار ذلك يجب على لبنان المسيحي، الباقي وحده لبناناً حرّاً وسيّداً، أن يقوى ويحمي نفسه ».

هذه صحيفة تصدر في أقاصي العالم تجد نفسها، بفعل أهمّيّة ظاهرة بشير الجميل، مدفوعة الى تخصيص حقول عنه وعن قوّاته، مع أنّ مثل هذه المنابر لا يتبرّع عادة بخدمة جهة او سياسة او شخص مجاناً. غير أنّ القيمة الصحفيّة للموضوع المعالَج طغت هنا على المصلحة الماديّة للجريدة وأوجبت عليها العناية به.

ولنلاحظ في الوقت نفسه، أنّ هذه الصحف والمجلّات الأجنبية تكتب عن الموضوع اللبناني بالتعابير التي يُعبّرون بها في الغرب عن القوى المتصارعة على الساحة اللبنانية، إذ يُطلقون على « القوات اللبنانية » اسم « الميليشيات المسيحيّة » او « اليمينيّة »، واسم « الميليشيات الإسلاميّة – اليساريّة » على ما تُسمّي نفسها « القوات

المشتركة » او « قوات الحركة الوطنية ».

وهذا هو الأديب الفرنسي الكبير **ميشال ده سان بيار** يهتمّ بإجراء مقابلة صحفيّة خاصّة مع بشير الجميّل لحساب جريدة « **الأورور** » التي نشرتها في عددها الصادر بتاريخ **٥ و ٦ كانون الثاني ١٩٧٩** وفيها يقول الشيخ بشير : « **إنّ القضيّة اللبنانية هي قضيّة دوليّة في جوهرها، والحرب بين المسيحيّين اللبنانيين والفلسطينيين كانت ترمي الى تسهيل دمج هؤلاء لدينا، والمسؤولون عن هذا البرنامج هم الأميركيّون** ».

فهل كان **ميشال ده سان بيار**، وهو من هو منزلة أدبيّة وصحفيّة، يحرص على الحصول على الجريدة التي يكتب فيها على مثل هذه المقابلة لولا ما تعنيه له وللقارىء الفرنسي من حيويّة وأهمّيّة ؟

والى جريدة « **لوميريديونال** » الصادرة في مرسيليا أدلى قائد « القوات اللبنانية » بحديث أعلن فيه : « **إنّنا نفعل عندنا ما ليس للغربيّين الشجاعة لفعله** ». وعلى سؤال « **لماذا تُفضّل الشخصيات الأجنبيّة (الأوروبيّة والأميركيّة) التي تزور لبنان الاجتماع بالغريب ياسر عرفات وبرجال الحكم اللبناني وإجراء المحادثات معهم دون أن تكون القوات اللبنانية دوماً ماثلة على جدول مقابلات هذه الشخصيات ؟** » أجاب الشيخ بشير : « **إنّ هذه الشخصيات الأجنبيّة حاولت دائماً أن تتهرّب من المدافعين الحقيقيّين عن القضيّة اللبنانية، لأنها تعرف أنّها عندما تلقانا نحن سنضع كلّ النسق الذي**

تتّبعه، وكلّ السياسة الحكوميّة لدولها، في قفص الإتهام... سواء كانت هذه الشخصيات اوروبيّة او أميركيّة... ».

وفي عدد آخر من جريدة « **الفيغارو** »، صادر بتاريخ ٤ آب ١٩٨٠، نجد، تحت عنوان « بشير الجميّل : خطّة لتحرير لبنان »، الخبر التالي في مكان بارز :

« أطلع بشير الجميل، قائد « القوّات اللبنانية » (التي تضمّ الميليشيات المسيحيّة)، جنده على وجود خطّة « لتحرير لبنان يمكن أن يُتخذ القرار بتنفيذها في أيّ وقت ». وقد دعا بشير الجميّل التنظيمات الإسلاميّة الشيعيّة « أمل » والناصريّة « المرابطون » للانضمام الى المسيحيّين. وهذا الكلام من جانب القائد العسكري للقوات اللبنانية هو إعلان حرب صريح على القوات السورية والفلسطينية التي تحتلّ، بصفات مختلفة، ثلثَي أرض لبنان ».

ولم تقتصر « **الفيغارو** » على عدَدَيْن تحدّثت فيهما عن بشير الجميّل، ففي عدد ثالث، صادر بتاريخ ١٤ ايار ١٩٧٩، نشرت تصريحاً للشيخ بشير خصّها به واستهلّته بما يلي :

« إنّ السوريّين يستطيعون أن يوفّروا على أنفسهم وعلينا مصائب جديدة بسحبهم جندهم من الأراضي اللبنانية »،

« هذا ما صرّح لنا به أمس في بيروت بشير الجميّل قائد « القوات اللبنانية الموحّدة »، وهو تصريح يرتدي شكل التحذير لأنه يأتي عشيّة انعقاد « القمّة » التي سوف تضمّ الرئيسين سركيس اللبناني والأسد السوري. وقد تناول بشير الجميل هذا اللقاء اللبناني ــ السوري الذي سيتمّ في دمشق معرباً عن خشيته من أن تطالب سلطات دمشق بثمن سياسي لانسحاب قوّاتها المحتَمل من الأراضي اللبنانية، موضحاً أنّ « معاهدة أمنيّة لبنانية ــ سوريّة تُتيح حتماً لنظام دمشق أن يستر فشل تدخّله في لبنان، لكنّ مثل هذا الميثاق بالنسبة إلينا هو أقبح بكثير من اتفاق القاهرة المعقود سنة ١٩٦٩ ما بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة اللبنانية ».

وفي عدد رابع أيضاً من جريدة « **الفيغارو** »، صادر بتاريخ ٢٦ كانون الاول ١٩٧٩، قال بشير الجميّل، عبر هذا المنبر الإعلامي الضخم :

« إنّنا نفضّل أن نبتسم بدلاً من الانتحاب على مصير بلادنا. فالابتسامة لا تُكلِّف شيئاً، وهي تضيء أكثر ممّا تضيء الشمعة ».

وأردف يقول :

« إنّنا صامدون في وجه المحتلّ ونزداد قوة يوماً بعد يوم، لأن الوقت يعمل لصالحنا ».

وتكرار تخصيص « الفيغارو » حقولها لأحاديث الشيخ بشير الجميل او للتحدّث عنه وعن القضية التي يُدافع عنها، دليل على ما يحتلّه القائد وقضيّته من مكانة وأهميّة في العالم الواسع.

وجريدة « الموند »، في عددها الصادر بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٨٠، نشرت صورة طفلة بشير الجميّل التي ذهبت ضحيّة عمل والدها من أجل وطنه وفوقها هذه الكلمات للأب الذي قدّمها قرباناً إضافيّاً للبنان :

« هناك أربعة آلاف شهيد في لبنان، وابنتي هي شهيدة جديدة ».

واستطردت الجريدة قائلة : إنّ بشير الجميّل دعا بعد مصرع طفلته الى التزام الهدوء « **لمنع القتلة الذين يريدون تدمير لبنان من تحقيق أهدافهم** ».

الحيلولة بين المجرمين وبين قتل لبنان هي همّ بشير الجميّل، ولا يهمّ بعد ذلك قُتلت ابنته هو أو سلمت، ذهبت كغيرها فداء القضيّة أو بقيت لتكبر وتؤدّي قسطها نحوها.

أمّا جريدة « **لوماتان** » الفرنسيّة فقد نشرت في عدد ١١ تموز ١٩٨٠، صورة للشيخ بشير الجميّل وفوقها هذا العنوان: « **قائد وقوّة للبنان المسيحي** ».

ونرى من ذلك أنّ جميع الصحف الفرنسيّة، لا صحيفة واحدة،

توسع صفحاتها للشيخ بشير الجميّل وما يُمثّله في نظر الرأي العام الخارجي.

وحتى الصحافة المحليّة في فرنسا خصّصت حقولاً للكتائب وللقوات اللبنانية وقائدها بشير الجميّل، فنشرت جريدة « **آخر أخبار الألزاس** »، في عدد ٣٠ آب ١٩٨١، تحت عنوان : « **الكتائب المسيحيّون : موحَّدون، نشيطون وفعّالون** »، مقالاً عرضت فيه الوضع اللبناني آنذاك.. متوقّفة عند الشيخ بشير الجميّل في المقطع التالي :

«المناطق المحرّرة تتبع للجبهة اللبنانية، والقوات اللبنانية، هي الوجه العسكري لهذه الجبهة .. ويقودها بشير الجميل الرجل القويّ في الكتائب. هذا اليمين الصلب ما يُريد؟ « لا للتقسيم خصوصاً، فدولة مسيحيّة تقوم لن تكون قابلة للحياة، وهي في كلّ حال تُناقض مبادئنا .. ولا تقبل بها الدول العربية ».

ولا يتّسع المجال لنقل كلّ ما نُشر في الصحف الفرنسيّة، خصوصاً « **الموند** » و « **الفيغارو** »، عن الشيخ بشير، اذ نجد « **الموند** » قد كتبت عنه في عدد ١٦ نيسان ١٩٨١، حيث قالت ، على لسان موفدها الخاصّ الى لبنان في أثناء أحداث زحلة، **إنّ سياسة القصف العشوائي التي تعتمدها دمشق لا تفعل أكثر من جعل المسيحيّين يلتفّون حول السيد بشير الجميّل.** كما كتبت في عدد ١٨

نيسان ١٩٨١، وفي عدد ٢٠ أيار ١٩٨١ تحت عنوان « **لبنان بين فكيّ الكمّاشة: دولة بشير الصغيرة** »، حيث لم تمنع لهجة المراسل العدائيّة من اعترافه بأنّ الشبّان المسيحيّين في « **المعقل الماروني** » كما سمّاه ليس لديهم شكّ بأنّ الزعيم الوحيد هو الشيخ بشير .. « **الذي لا يملك فقط كلّ صفات القائد الحقيقي بل هو مصمّم على البلوغ برسالته التاريخية الى غايتها** ». وأخيراً كتبت عن الشيخ بشير في عدد ٢ ـ ٣ تموز ١٩٨١. داعية إيّاه بِـ « **القائد الأعلى للجبهة اللبنانية** » على عادة الصحف الأجنبية في الوقوع بالتباسات فيما يتعلّق بقضايا المناطق البعيدة عن بلدانها من العالم.

كذلك « **الفيغارو** »، **في عدد** ٢٠ تموز ١٩٨١، ذكرت، بصدد أحداث زحلة، أنّ « **كلّ شيء هو في يد بشير الجميّل الذي يستطيع، بتصلّبه، أن يُفجّر المجابهة ما بين السوريين والاسرائيليّين** ». كما ذكرت في العدد السابق للعدد المذكور أعلاه، أي في ١٩ أيار ١٩٨١، أن بشير الجميّل: « **رئيس الكتائبيين الذي أدّى تدخّله في زحلة الى اندلاع الأزمة** »، سيُقابل في واشنطن عدّة مسؤولين سياسيّين، وعلى الأخصّ منهم ريتشارد ألن المستشار الدبلوماسي للرئيس ريغان، ونيكولا فليوتس ناظر الدولة المساعد لشؤون الشرق الأدنى، وجيس هلمس العضو المحافظ في مجلس الشيوخ .. الذي يُوجّه لجنة الشؤون الخارجيّة في هذا المجلس منذ أن أصبحت السيطرة فيه للجمهوريّين حائزاً على صيت بأنّه يتمتّع بقوة لا تقلّ عن قوة ناظر الخارجيّة.

وعودة الى عدد ١٧ نيسان ١٩٨١ من « **الفيغارو** » لنجد فيه، بقلم الصحفي المعروف **تياري دي جاردان**، نقلاً لتصريح أدلى به الشيخ بشير في مؤتمر صحفي عقده خلال معركة زحلة، وقد لقّبه المراسل بـ « **القائد الشاب الشجاع للميليشيات اللبنانية** ». كما نجد مقالاً آخر لهذا الصحافي بالذات في « **الفيغارو** » أيضاً يُركّز فيه على الشيخ بشير وذلك في عدد ١٥ نيسان ١٩٨١.

وأخيراً فإن جريدة « **لوماتان** »، في عددها الصادر بتاريخ ١٠ كانون الثاني ١٩٨١، وصفت بشير الجميّل بأنه « **رمز اليمين القوي** ».

ونلمس من ذلك كلّه أنّ ذكر الشيخ بشير يكاد لا يغيب عن الصحف الفرنسيّة اليوميّة. فما هي حاله بالنسبة الى المجلّات الأسبوعية؟ إنّنا لنقرأ في مجلّة « **الأكسبرس** »، إحدى أكبر هذه المجلّات، مقالاً طويلاً بعنوان: « **بشير الجميّل الشيخ الشعبي** »، كتبه أندره بوتار مستهلاً إيّاه بهذا المطلع:

« نجهل في أحيان كثيرة متى، في أيّة لحظة محدّدة ، تتحوّل حياة الى قدر، أمّا بشير الجميّل فيعرف ذلك، إذ، حوالي الظهر من يوم السبت ١٢ نيسان ١٩٧٥ ، أغلق باب مكتبه في شارع الحمراء ولم يعد إليه بتاتاً. ذلك أنّه، في اليوم التالي، اندلعت الشرارة الأولى لنزاع ما يزال مستعراً منذ ستّ سنوات، وهذا القتال أدّى الى تحوّل المحامي الشاب قائداً عسكريّاً، ثمّ الى تحوّله الآن، وهو لم يتجاوز

الثالثة والثلاثين من عمره، رجلاً سياسيّاً فعليّاً عرف أن يفرض نفسه على أكثرية المسيحيّين اللبنانيّين.

« فعندما انطلقت رصاصات ١٣ نيسان ١٩٧٥ منذرة بنشوب النزاع تولّى قيادة الميليشيات في أحد الأحياء المسيحيّة من بيروت. وهكذا رأيناه في الجبهات الرئيسيّة من العاصمة يُدير الهجوم أو « المقاومة » ضدّ القوات الفلسطينية التي تساندها التنظيمات المسلّحة لليسار اللبناني. ومن هذه الفترة ورث بشير نقمة على العالم الغربي « اللّامبالي إذا لم يكن معادياً ».

« وإذ يصعب فهم المواقف المتقلّبة لمعظم رجال السياسة اللبنانيّين، نجد أنّ موقف بشير الجميّل له الفضل بأنّه بسيط وواضح وبأنّه ظلّ ثابتاً. وكلّما مرّ الزمن على هذه الحرب لاحظنا أنّ الوقائع تؤيّد صحّة رأي ونبؤات بشير الجميّل، وانه ينبغي الآن أن نأخذ هذا الشاب، الذي بدأت مشاريعه تتحقّق، مأخذاً جدّيّاً ».

وهذا ما يُعبِّر عنه ذلك الكلام الذي باح به الاشتراكي **ميشال روكار** بعد أن زار لبنان إذ قال:

« لقد أكّدوا لي أنّ بشير الجميّل هو فاشيّ، لكنّهم خدعوني لأنني، لو كنت لبنانياً، لكنت وقفت الى جانبه ».

سرّ هذه القدرة على الإقناع يجب أن نبحث عنه في عهد فتوّة بشير الجميّل. ففي عام ١٩٧٠ انطبع في نفسه حدثان: لقاؤه بجمال

عبد الناصر، ثم، بعد ثلاثة أشهر، وقوعه في كمين فلسطيني حيث احتُجز لمدة ثماني ساعات. ومنذ ذلك الحين غدا يُوجز المشكلة التي تواجه المسيحيّين في لبنان والشرق كلّه بأنها مشكلة « **أن يكون المرء أو لا يكون مواطناً حرّاً في بلاده بالذات. فإمّا الخضوع، وإمّا الهجرة وإمّا القتال** ».

« **وإذا كانت النزعة الانفصالية ما زالت قوية لدى مسيحيّي لبنان الذين يكتفون ببقعة محدودة لا تتجاوز تخوم انتشارهم الطائفي فإن بشير الجميّل يُحارب اليوم هذا المشروع الذي يلقى بعض التأييد وكثيراً من المخاوف في العالم. ذلك أنّ هذا الرجل يتمسّك بلبنان واحد في ظلّ قواعد جديدة للتعايش ما بين المسيحيّين والمسلمين. وهو، اذا كان يُهاجم الدولة بقسوة، فليحثّها على الإصلاح أو يقودها إليه** ».

ونلاحظ أنّه مقال مسهَب في مجلّة لا تفرد أكثر من زوايا صغيرة حتى لأهمّ المواضيع.

أمّا مجلّة « **لوبوان** »، وهي تكاد تكون اليوم المجلّة الأولى في فرنسا، فقد وصفت بشير الجميّل بقولها إنّه زعيم الجبهة اللبنانية، وإنّه القائد العسكري الذي لا يُقهر.

وفي فرنسا تصدر مجلّة راقية جدّاً تُدعى (V.S.D.) ـ (الجمعة. السبت. الأحد)، وقد كتبت في عددها رقم **١٥٠** الصادر ما بين ١٧ و ٢٣

تموز ١٩٨٠، تقول: « **بشير الجميّل، سيّد مصائر لبنان المسيحي، يملك، للحفاظ على سلطته على هذه المملكة المسيحيّة الصغيرة، جيشاً من أقوى الجيوش في الشرق الأوسط : حوالي ثمانين ألف رجل ليسوا، في الحقيقة، تحت السلاح باستمرار، إذ أنّ معظمهم احتياطيّون، لكنّ تعبئتهم تجري بسرعة، حيّاً حيّاً وقرية قرية، وهم يحتفظون بسلاحهم وببزّة القتال في بيوتهم** ».

وقد أرفقت المجلّة كلمتها هذه عن الشيخ بشير بتصريح أدلى به إليها ذاكراً فيه حادثة ٧ تموز ١٩٨٠ بما يُعطيها بعدها الحقيقي: « **لقد أعطيت الأمر بالانطلاق في عمليّات ٧ تموز من أجل توحيد قوّتنا. فعندما كنّا متفرّقين لم نكن شيئاً، أمّا الآن فلدينا جيش مسيحي متشرّب مبادىء الغرب، ويبقى علينا أن نعدّه للآتي من الأحداث** ».

وبين المجلّات الأجنبية الناطقة باللغة الفرنسيّة، هناك مجلة « **لا سويس** » السويسرية التي نشرت، في عدد ١٥ نيسان ١٩٨١ وتحت عنوان: « **المسيحيّون اللبنانيّون يعرضون الحوار** »، **أنّ بشير الجميّل، قائد القوات اللبنانية (الميليشيات المسيحيّة الموحّدة)، صرّح بأنه مستعدّ لمباشرة الحوار مع سوريا توصّلاً الى حل للقضية اللبنانية.** وقال السيد الجميل: « **بالطريقة نفسها التي خضنا بها الحرب التي فُرضت علينا، نستطيع أن نباشر الحوار مع السوريين** ». وتابعت المجلّة تقول : « **ان السيد الجميّل يعتبر أنّ القوات اللبنانيّة أحرزت في الغرب**

« إنتصاراً سياسيّاً » سوف يُعطي ثماره عاجلاً أو آجلاً، وقد أوضح أن « ما نطلبه من الغرب هو أن يأخذ على نفسه عهداً سياسيّاً بالوقوف الى جانب لبنان حفاظاً على استقلاله وسيادته »، وأعاد تأكيده أنّ القوات اللبنانيّة لا تُريد تقسيم البلاد »

وفي عدد ١٤ ــ ٢٧ أيلول ١٩٨١ من مجلّة « **أفريقيا ــ آسيا** »، في سياق مقال طويل، أنّ دين فيشر، الناطق الرسمي باسم نظارة الدولة الأميركية، أولى بشير الجميّل (لدى زيارته للولايات المتحدة بعد أحداث زحلة) اعتباراً واحتراماً عامَّين ووصفه بأنّه «**شخصية هامّة قادرة على أن تلعب دوراً كبيراً ومهمّاً** ».

واذن لم تقتصر مكانة الشيخ بشير في الخارج على الأوساط الصحفيّة، بل تعدّتها الى رجال السياسة والدولة كميشال روكار ودين فيشر.

هذا الى جانب ما ظهر عنه في مجلّتي « بلجيكا الحرّة » و « **افريقيا الفتيّة** » من تعليقات ترسم صورة للقائد الذي يعمل من أجل إنقاذ وطن والحفاظ على سيادته .. ويدافع بقوة عن قضية شعب ومصير.

وكالصحف والمجلّات الناطقة بالفرنسيّة تلك الناطقة باللغة الانكليزيّة من أميركيّة وبريطانيّة، إذ كتبت جريدة « **النيويورك تايمس** »، أكبر الجرائد الأميركيّة، عن الشيخ بشير الجميّل بقلم جون كيفنر في

عددَي ٨ تموز ١٩٨١ و ٤ آب من العام نفسه، ذاكرة تصريحه بأنّ المقاومة اللبنانية قدّمت خمسة آلاف شهيد وهي مستعدّة لتقديم المزيد من أجل عزّة لبنان وبقائه.

ونشرت كذلك « **النيويورك تايمس** »، في عدد ١١ تموز ١٩٨٠، نبذة عن الشيخ بشير الجميّل، نشأةً ودراسةً وعملاً.. واصفة إيّاه بأنّه « **رجل الأحداث** »، وملقّبة إيّاة في العنوان بـِ « **زعيم المسيحيّين اللبنانيّين** ».

وتجدر الإشارة الى هذه الصحف الكبرى، بأنها حفاظاً على طابعها الرصين لا تمدح أحداً ولا تُعطي وصفاً لأحد، إلّا اذا كان في نظرها على الحقيقة تماماً وكمالاً.

أمّا جريدة « **واشنطن بوست** » فقد تمحورت مقالاتها حول بشير الجميّل في أعداد ١٥ نيسان و ٢٥ أيار و ٣ حزيران و ٨ تموز ١٩٨١، إذ حمل الأول من هذه الأعداد صورة لبشير الجميل مع مقال **لنورا بستاني**، بينما كتب مقال العدد الثاني **وليم كليبورن** من قسم الشؤون الخارجيّة في الجريدة، والمقال الثالث كتبه **جوناثان راندال** من قسم الشؤون الخارجية أيضاً، والمقال الرابع **لنورا بستاني** صاحبة المقال الأوّل.

وجريدة « **شيكاغو تريبيون** » كتب فيها **جون ماكلين**، من القسم الصحفي، مقالاً في عمودَين عن بشير الجميل وعمله وقوّاته اللبنانية التي يُلقّبها كغيره بـ « **الميليشيا المسيحيّة** »، ناقلاً عن لسانه

كثيراً من الأقوال والتصريحات، وذلك في عدد ١٤ آب ١٩٨١.

ونأتي الى المجّلات الأميركيّة، وأوّلها مجلّة « **تايم** » الواسعة الانتشار في عددها الصادر يوم اول ايلول ١٩٨٠ تحت عنوان « **القائد الكتائبي بشير الجميل** »، حيث ذكرت على لسانه أن عملية ٧ تموز كانت عملية إعداديّة لمواجهة العدوّ الحقيقي، وكذلك في عددها الذي صدر بتاريخ ١١ ايار ١٩٨١، اذ نشرت مقالاً مسهباً عن الأزمة اللبنانية مرفقاً بصورة للشيخ بشير الجميل بين صورتين للرئيس اللبناني الياس سركيس والرئيس السوري حافظ الاسد.

وغنيّ عن التوضيح معنى هذه الصورة بين صورتَي رئيسَي الدولتين.

ونشرت مجلة « **نيوزويك** » الأميركية مضمون مقابلة أجرتها مع بشير الجميل وأرفقتها بصورة له وتحتها كلمة مقتطفة من حديثه مفادها **انه سيُقاوم التقسيم الى الأبد، وقد وصفته في مقدمة المقابلة بِـ « الزعيم المسيحي »**.

وكتبت مجلة « **الشرق الاوسط** » البريطانية دراسات عميقة عن المشكلة اللبنانية مركّزة فيها بشكل ملحوظ على « زعيم الميليشيا الكتائبية المسيحية بشير الجميل » وطموحه الى تحرير سائر أنحاء لبنان من الفلسطينيين والسوريين. وقد ألمحت هذه المجلّة الى وجود خطّة

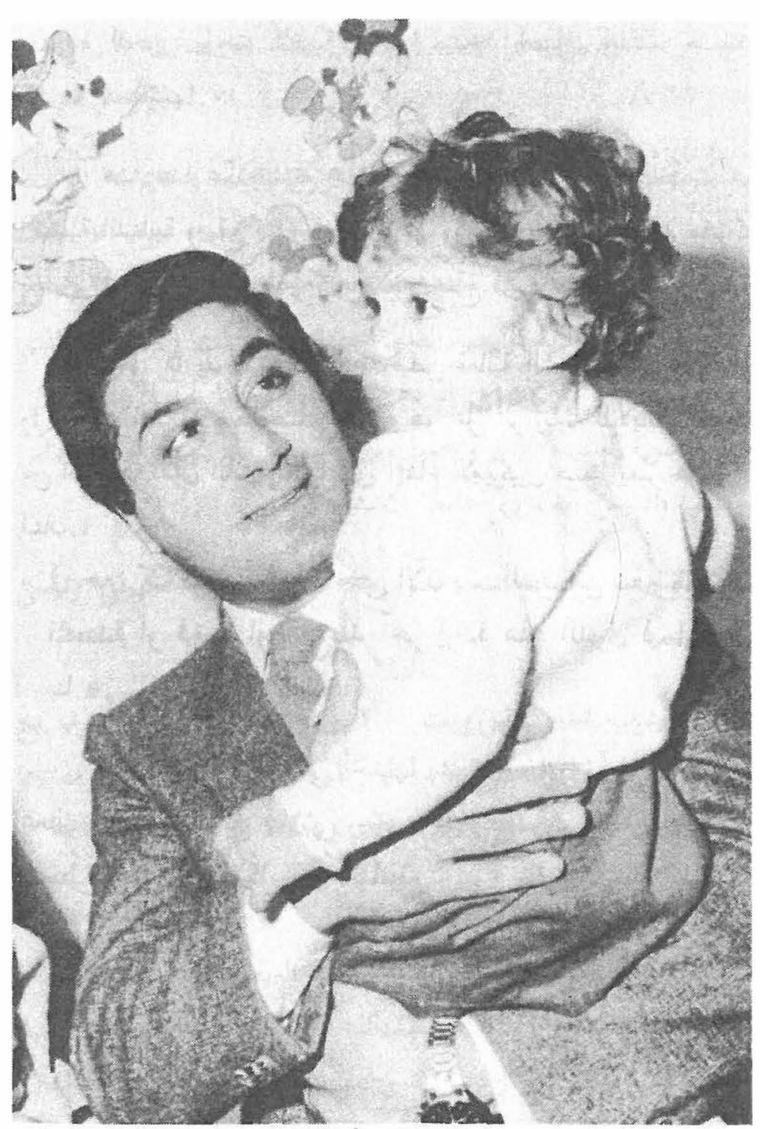
جديدة لتحرير بيروت الغربيّة أعدّها بشير الجميل، وينشد مساندة الشيعة لتحقيقها.

هذا عدا عمّا نشرته مجلات أجنبيّة أخرى، وكلّها يتحدّث عن القضية اللبنانية وموقع بشير الجميل منها ودوره المهمّ والحيويّ... وهو ما يضيق المجال عن استيعابه كلّه، لأنه يحتاج الى مجلّد مستقلّ.

ولعل ما يُلخّص أفضل تلخيص فعاليّة الشيخ بشير في العالم، وفي الدول الكبرى خصوصاً، ما قاله هو على أثر زيارته للولايات المتحدة من أنّه كان الأول الذي أوصل الى أسماع الأميركيين صوتاً يُعبّر عن إرادة لبنان..

« في حين كنّا نرى مسؤولينا حتى الآن يستطلعون من سفير الولايات المتحدة او فرنسا او أيّ بلد آخر إرادة هذه الدول فيما يختصّ بنا ».

لقد كان للضجّة التي أحدثها بشير الجميل في وطنه صداها في العالم، وهو صدىً لن يتلاشى رجعه ما دام الصوت الصارخ في لبنان يتخطّى الضجّة ليشكّل دويّاً كالمدفع.



بشير الجميّل الأب المثالي

وأخيرًا... أُوكلَ إليهِ أمرُ لبنان

لا ندري كم يُعبِّر هذا العنوان عن الحقيقة، فقد أوكل اللبنانيون أمر مصيرهم ومصير وطنهم الى بشير الجميّل، منذ أن لم يجدوا غيره فارساً في الساحة مستعدّاً، مع حفنة من الشباب الأبطال، لتحدّي واقع لا يُمكن لإنسانٍ « عاقل » أن يتحدّاه : واقع وجودِ مسلَّح غريب أرسى كلّ ثقله البشري والعسكري والسياسي في ارض لبنان، حتى بات اعداؤه الأقوياء يحسبون ألف حساب لكيفيّة معالجة أمره، وواقع وجود جيش نظامي آخر على الأرض اللبنانية، جيش دولة من أقوى الدول العربية وذات حدود مفتوحة مع لبنان تُمكنّها من إدخال تعزيزات غير محدودة إليه، وواقع مواقف دوليّة تصبّ كلّها في خانة تأمين مصالح هذه الدول النفطيّة والاقتصاديّة والسياسيّة على حساب الوطن الصغير، المجمع على جعله وشعبه، ضحيّةً وكبش محرقة وفديةً لحلّ أزمة كبيرة هي أزمة الشرق الاوسط.

أجل، وضع مقفل من جميع الجوانب.. سدَّ على اللبنانيين آمالهم بإمكان الخروج من الزنزانة التي يُنفِّذون فيها الحكم المؤبَّد عليهم، واذا ببارقة الأمل تلوح.. بصيصاً في البدء على يد شاب من اولئك الذين تحبل بهم الاوطان في لياليها المدلهمّة الحالكة، ثم يكبر هذا البصيص.. وتكبر معه المقاومة بازدياد عدد الذين سرى الى نفوسهم إيمانه بإمكان مجابهة العين للمخرز وقهر القوة بسواعد الحقّ، حتى اصبحت حفنة الأبطال جحافل جرّارة تُمثِّل جيل الشباب في المنطقة الحرّة من لبنان، والمناطق المقهورة، بكامله، وحتى انقلبت المواقف والمخطّطات عندما لمس أصحابها أنَّ هناك شعباً متشبّثاً بأرضه وحريته الى حدّ لا يُمكن معه زحزحته عنهما. وكانت روح بشير الجميّل في الحقيقة هي التي شاعت في حنايا هذا الشعب ودفعته الى التمرّد على قرار إجماعي من العالم بإعدامه وتقديمه قرباناً على مذبح تحقيق تسوية شاملة على مستوى المنطقة بكاملها. قرار كان بمثابة القضاء والقدر، لا مردَّ له ولا رجعة عن تنفيذه.

وهكذا، عندما أطلّ على لبنان موعد استحقاق دستوري هو موعد انتخاب رئيس جديد للجمهوريّة، لم يكن هناك، بالنسبة الى اللبنانيين، عمليّة اختيار او مفاضلة بين مرشَّح وآخر كما في الظروف العاديّة السابقة، بل كان هناك اتّجاه تلقائي نحو شخص راح الناس يقولون ببساطة : « مين في غيرو ؟ ». فكأنّه كان يدلّ على نفسه، او كأنّ إصبع لبنان الذي حفظ له وجوداً كان على وشك الزوال تمتدّ من

أعماق التاريخ لتُشير إليه.

لقد كانت المرة الاولى على مدى انتخابات الرئاسة في لبنان التي يجد فيها النواب أنّهم مدفوعون بوحي اتّجاه شعبيّ عارم، الى اختيار شخص معيَّن للمنصب لا يُمكنهم ان يحيدوا عنه. ولا نقول هذا بمعنى أنَّ النواب كانوا مجبَرين على هذا الاختيار، فقد كان التجاوب والانسجام تامَّين ما بين الشعب وممثِّليه، و إنما نقوله تدليلاً على أنّ الاتجاه النيابي، لو خالف تلك الرغبة الشعبيّة التي جاءت كالأمر البديهيّ المفروغ منه، لبدا كأنه يزرع الشمس في كبد الليل او ينقل النجوم الى وضح النهار.

لماذا بشير الجميّل ؟ سؤال طرحه الجميع إبّان فترة الانتخابات، وكان من نوع تساؤل العارف لا تساؤل المحتاج الى جواب. فقد أجابوا عليه بأنفسهم، قائلين :

« لأنّه يُجسّد أمل الأجيال الصاعدة في أن تأخذ دورها في بناء الوطن.

ـــ لأنّه أثبت أنه قادر على إحلال الأمن والعدل والمساواة بين جميع المواطنين، وأنَّ القدرة على إقامة الأمن الاجتماعي لا تعوزه.

ـــ لأنّه القادر على اتخاذ مواقف لا يستطيع أحد غيره اتخاذها، حيث إنّه يتمتّع بثقة الرأي العام اللبناني وبتقدير واحترام دولي وعربي.

ـ لأنّه يُصَحِّح مسارّ الديمقراطية فيُعيد كلّ سلطة الى أصحابها الشرعيّين ويُطلق حريّة الكلمة والرأي بوعي وضمير ومسؤولية.

ـ لأنّه أعلن عن تمسّكه بلبنان الـ ١٠٤٥٢ كيلومتراً، والتزم بالدفاع عنه كاملاً والحفاظ على حدوده الدولية. ومن ائتُمن على الألفي كيلومتر من لبنان وأعطى البرهان الساطع على أدائه الأمانة، لجدير بأن يُؤتمن على كامل تراب الوطن. وهو مِمّن اعتادوا على مواجهة الأحداث الكبرى بشجاعة ومسؤوليّة وبُعد نظر، وقد دفع هو شخصياً ثمن ذلك غالياً وغالياً جداً.

ـ لأنّه يرى في لبنان صورة لطموحات بنيه الذين يُريدونه سياجاً يُسوّرهم ويقيهم الأخطار الداهمة.

ـ لأنّه يستطيع أن يبني جيشاً فاعلاً وقويّاً وأن يكون رئيساً يُدافع عن الجيش ويمنحه كلّ زخمه ويُسخّر في سبيل منعته كلّ الأوراق التي يملكها.

لأنّه لا يستطيع إلّا ان يكون لكلّ اللبنانيين، يقف الى جانب الحقّ والكفاءات، فيُحقّق المساواة فيما بينهم، ويُحلّ العدالة ويؤمّن التوازن الحقيقي بين العائلات الروحية التي يتألّف منها لبنان.

ولأنّه وصل الى رئاسة الجمهوريّة مباشرة دون المرور بمهنة السياسي التقليدي المخضرم. فليس وراءه تاريخ طويل من « العمل »

السياسي والنيابي والوزاري، بل وراءه زمن قصير ولكنّه مليء بالعمل السياسي الخلّاق. فهو لم يأتِ لقطف ثمار مهنته كسياسي بعد طول « جهاد »، بل هو آتٍ لتحمّل مسؤوليّة كبرى تُعتبر بداية لعمل انقاذي كبير : إنه لم يأت ليقطف، بل هو آتٍ ليزرع.

ولأنّ لديه من القوّة السياسيّة والقدرة الشخصيّة ما يجعله قادراً على اتخاذ المواقف الجذريّة في موضوع تحرير لبنان من محتلّيه. وسيكون هو الرجل المؤهّل لأنقاذ الوطن في أحلك ساعاته العصيبة ».

وأخيراً، لأنّ بشير الجميّل هو الشخص الذي جاء بصوت صارخ من الشعب بحيث لم يكن على المُـدلين بأصواتهم في صندوقة الاقتراع، إلّا أن يُردّدوا في ورقتهم صدى الموجة الشعبية الهادرة بالوعي والحقّ والإيمان.

ولأنه الشاب الذي حُمل الى الرئاسة على أكفّ الشباب وسواعدهم، هؤلاء الذين رأوا في وصوله الى المقعد الرئاسي دفعاً لدمٍ حارّ في عروق الجهاز الحاكم، وبثّاً لروحٍ وثّابة في حناياه، فترتدي المسؤوليّة، الى جانب ما يجب أن تتحلّى به من حكمة وأناة و إشباع المواضيع درساً وحسبان جميع الحسابات قبل الإقدام على اتخاذ أيّ قرار، جرأةً ومبادرةً وخُلقاً، وصلابةً لا تعرف الوقوف أمام العقبة او التراجع بعد حزم الأمر.

بشير الجميّل.. شاب وربيب بيئة الشباب الذين مشوا و إيّاه

الطريق الوعر كرفيق لهم وواحد منهم، وكانوا في وجدانهم مقتنعين بأنّهم سائرون الى المحرقة لقاء انتشال وطنهم منها الى آفاق الخلاص والنجاة. فلم يكونوا يتصوّرون أنّهم، وزميلهم الذي هتف بهم قائلاً : « **مَن معي الى الهلاك ويسلم وجه لبنان** ؟ » فأجابوه : « **كلّنا معك فداءه** » لم يكونوا يتصوّرون أنهم سيسلمون او يسلم بعضهم و إيّاه ليبذلوا العَرَق والعافية في عمليّة النهوض بالوطن كما بذلوا الدم في حماية كيانه وبقائه. لقد ظنّوه مستشهداً أمامهم ثم يلحقون به واحداً تلو الآخر. وكان هذا المصير محتملاً جداً، وقد لقيه الآلاف الخمسة من زمرة الشباب هؤلاء. إلّا أنّ العناية التي هيّأت للبنان المنقذ والمنقذين معه، دبّرت ان يكون هذا المنقذ ومن سلم من رفاقه هم البناة فيما بعد، لأنّهم « أصحاب الأيدي التي تعبت » وبالتالي فهم « أصحاب القلوب التي تشفق » على ما تعبت عليه أيديهم. وهكذا رأيناهم اليوم مدعوّين و إيّاه الى مشقّة البذل من الذات، بعد أن كانوا حتى الأمس القريب في وارد بذل الذات نفسها وقد بذلوها بأشخاص إخوتهم الشهداء، و إخوتهم المعاقين الذين نرى فيهم دائماً صورة البطل الذي يُضحّي بأغلى ما يملك من أجل وطنه وشعبه.

و إلى جانب الشبيبة التي طلع بشير الجميّل من صفوفها، وساهمت في ايصاله الى حيث يجب أن يكون، هناك اللبنانيّون « في المقلب الآخر من هذا الوطن » كما شاء لهم مخطّطو الفتن ومفتعلو الفرقة والوقيعة أن يكونوا. فانتخاب الشيخ بشير لرئاسة الجمهورية تمَّ بأصوات

النواب الممثّلين لجميع الطوائف اللبنانية، وقد أتى هؤلاء من جميع المناطق غير عابئين بالتهديدات والانتقامات التي لحقتهم دون استثناء : من بيروت الغربيّة أتوا، ومن الشمال والبقاع، ومن الاحزاب التي خاصمت الكتائب حتى لكأنّ هذه البادرة كانت بمثابة استفاقة ضمير.. فضلاً عن أنها واجب وطني مقدّس.

•

وحتى مقاطعة جلسة الانتخاب لم تكن ايضاً على اساس طائفي، اذ ضمّت نواباً من غير المحمديّين لأنّ المقاطعة كانت عمليّة سياسيّة وراءها جهات سياسية معروفة.. ولو حاولوا صبغها باللون الطائفي ليقولوا إنّ بشير الجميّل جاء بأصوات نواب من فريق معيّن فرضوه على الفريق الآخر، فلم تصحّ معهم اللعبة لأنّ تسعة عشر نائباً محمّديّاً أعطوا صوتهم لبشير الجميّل او على الأقلّ ساهموا في تأمين النصاب لجلسة الانتخاب، حين كانت أشدّ المحاولات تُبذل لتعطيل هذا النصاب بحيث كان مجرد حضور النائب للجلسة عملاً إيجابيّاً من جانبه، يُساعد على إنجاح بشير الجميّل.

وفي عهد بشير الجميّل سيكون المسلمون اللبنانيون الشريك الفعلي في الحكم و إحدى اليدَين اللتين تُمسكان بالزمام. فهو لم ينظر إليهم يوماً إلّا على أنّهم « **شركاؤنا في الوطن والمصير** »، وقد توجّه إليهم بعد فوزه في انتخاب الرئاسة، وخصوصاً الى اولئك الذين قاطعوا جلسة الانتخاب او اعترضوا على نتيجته، بالقول : « **أمدُّ يدي لكل اللبنانيين حتى نتعاون معاً بكل محبّة و إخلاص وروح مسؤولة، لأنّ**

أحداً لن يُخلّصنا اذا لم نُنقذ أنفسنا واذا لم نتوحّد ». دعوة متجدّدة للتلاقي الذي لم يكن متاحاً في السابق لأنه كان ممنوعاً : « **نحن اللبنانيين لم نختلف مرّة فيما بيننا على الأمور المبدئيّة والمفاهيم الأساسيّة. لم نختلف يوماً على مفاهيم الاستقلال والسيادة والوحدة الوطنية.. وعلى الخيارات الرئيسة. كنّا مختلفين لأنه لم يكن بإمكاننا ان نجلس ونتّفق »**.

اليوم لم يعد هناك مانع من الجلوس والاتفاق، بل ربّما ليس هناك ما يحتاج الى التداول للاتفاق عليه، لأنّ الخلاف نفسه كان مفتَعَلاً، ولم يصدر يوماً ما ينمّ عليه من قبل المواطنين المسلمين العاديّين، من قبل « الأكثرية المسلمة الصامتة »، بل إنّ الذين رفعوا شعارات واتخذوا مواقف تدلّ على انشقاق في الصف اللبناني، هم أرباب التنظيمات المسلحة ذوو الارتباطات الخارجيّة بجهات عربية او دولية معروفة، وبعض الزعماء الذين اضطروا الى مجاراة التيّار والنطق بغير ما يُبطنون في قرارة أنفسهم خوفاً او للاحتفاظ بمكان لهم على الساحة.

والدليل على ذلك أنّ جماهير المواطنين المسلمين المثقّفين والبسطاء، أي الكثرة الشعبية الغالبة، زحفت، من المناطق التي تمّ رفع الكابوس عنها، في مثل خروج من القمقم وتحرُّر بعد كبت طويل، لتهنئة الشيخ بشير بثقة بني قومه والتعبير عن الابتهاج بهذا الاختيار الوطني.

ونحن في كل يوم نسمع او نقرأ تصريحاً لشخصيات مسلمة

تنوّه بمزايا الشيخ بشير وتُشيد باجماع ضمائر اللبنانيين عليه :

ــ « إنّ انتخاب بشير الجميّل رئيساً للجمهورية يضمن بقاء لبنان بلداً حضاريّاً في كل تطلّعاته، ويُحقّق على يده عودة البلاد الى وحدتها واستقلالها وسيادتها التامة وعودة اللبنانيين الى أصالتهم في التسامح والمحبّة »

(المحامي محسن سليم)

ــ « لقد انتصر لبنان مرتين بانتخاب الشيخ بشير الجميّل رئيساً للجمهورية، فأثبت أن نظامه الديمقراطي على علّاته ما زال يعمل في أحلك الظروف، واستطاع ان يختار، بدلاً من مرشّح تقليدي لتسوية جديدة من التسويات العشائرية التي خرّبت البلاد، رئيساً شاباً هو اول رئيس للجمهورية وُلد وشبّ في عهد الاستقلال اللبناني الكامل لا في ظلّ والٍ عثماني او مفّوض سامٍ فرنسي..

وقد أعلن الرئيس المنتخب بكلّ وضوح أنّه رئيس كلّ اللبنانيين وفوق كل الاعتبارات الحزبية والفئوية والطائفيّة ».

(الدكتور محمد المغربي)

ــ « شعار « منع التقسيم ووحدة لبنان »، ذلك الشعار الذي استُعمل ضدّ القضية اللبنانية في وقت من الأوقات، نطرحه اليوم من جديد لعقد الخناصر وتوحيد الصفوف حول الرئيس المنتخب لنفوّت على أعداء لبنان فرصة النيل من لبنان ».

(الدكتور أسامة عيتاني)

ــ « إنّ بشير الجميّل القائد الشاب الذي ناضل وحافظ على سيادة لبنان ويعمل من اجل وحدته، علينا واجب الالتفاف حوله لإخراج بلادنا من كل الأزمات. فألف تحية الى القائد الشاب من صيدا التي تفخر به رئيساً للبنان ».

(الدكتور لبيب ابو ظهر)

ـ « إنّ اعلان الشيخ بشير الجميّل عن ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية، وعن برنامجه الشامل، تميّز بجرأة الصراحة وبصراحة الجرأة. واننا ندعو جميع المعنيّين، نواباً وغير نواب، الى التمثل بصراحة وجرأة الشيخ بشير ».

(النائب السابق عبدالله الغطيمي)

هذا البرنامج الشامل الذي أشار إليه النائب السابق، والذي قدّمه الشيخ بشير مع إعلان ترشيحه للرئاسة ــ وهي المرة الأولى التي يخوض فيها مرشّح لرئاسة الجمهورية في لبنان المعركة على أساس برنامج كما تفعل الأحزاب المتنافسة في الدول العريقة في الديمقراطية ــ، هذا البرنامج.. ماذا تضمّن وما كانت خطوطه الكبرى ؟ إنّ أوّل ما يلفت فيه، هو أنّ صاحبه المرشّح الرئاسي لم يستخدم برنامجه، بصورة مباشرة او غير مباشرة، لاكتساب أصوات نيابيّة له في جلسة الانتخاب، بل كان كلّ همّه التحذير من مغبّة العمل لتعطيل اللعبة البرلمانية وإحداث الفراغ الدستوري. فالجلسة يجب ان تتأمّن، والانتخاب يجب ان يجري، ولا يهمّ بعد ذلك من يكون الفائز ومن يختار المجلس لقيادة البلاد :

« إنّ مسؤوليّة المجلس أن يختار، وأن يكون هناك مرشّحون آخرون غيري، وأن تكون المعركة مئة في المئة ديمقراطية، وأن تكون هناك منافسة متعدّدة ومختلفة الجوانب مع اشخاص من تيّارات مختلفة، وأن يختار المجلس النيابي الافضل والأحسن والذي يقتنع به. إنما الذي يُفكّر في تعطيل او تأخير او منع الانتخابات فليأخذ جديّاً بعين الاعتبار الذيول والانعكاسات التي يُمكن ان تحصل لأن

جمهورية من دون رئيس تكون خطرة للغاية ».

وما يلفت في البرنامج ايضاً أنّ المتقدّم بموجبه الى الرئاسة، أعلن منذ اللحظة الاولى أنّ ترشيحه ليس للمناورة او للمساومة او للتراجع. والذين سمعوا منه هذا الكلام، ممّن لا يزالون معتادين على الأساليب التقليديّة في أمثال هذه المعارك، تردّدوا في تصديق وجود النيّة الجازمة لديه للمضيّ في المعركة الى النهاية، وحسبوا أنّ إعلان ترشيحه هو لتخويف فئات معيّنة به، تمهيداً لدفعها الى القبول بمرشّح تسوية من النهج السياسي نفسه، وإنما أقلّ تطرّفاً من الشيخ بشير. لكنّ هذا النَمَط المألوف من الألاعيب الانتخابية هو الذي جاء بشير الجميّل ليُنهيه ويُرسي أسس عقليّة جديدة في الممارسة السياسية والحكم :

« إننا نطرح اليوم مسائل جديدة، نطرح ذهنيّة جديدة في الحكم، ونأمل، عبر المؤسّسات الشرعية، في ان يتمّ هذا التغيّر ».

لذا دُهش المشكّكون عندما رأوا ما لم يروه من قبل : سياسيّاً يقول الاشياء بدون لفّ ولا دوران، يُعلن أنّ ترشيحه جدّيٌّ ونهائيّ فإذا الوقائع تُثبت أنّه جدّيٌّ ونهائيّ. لا ينسحب بعد حين مبرِّراً انسحابه بذرائع معدَّة سلفاً : « نزولاً عند رغبة الأصدقاء، وتفادياً لحصول انقسام وطني، وثقة بأهليّة الزميل « فلان » لملء المنصب الكبير... هذا في حين يكون السبب الحقيقي للانسحاب نيّة مبيّتة لذلك من الأصل، او خضوعاً لضغوط او لأحكام تطوّرات او لقبض مال لقاء هذا الانسحاب. هذا شيء أصبح « موضة عتيقة » مع بشير الجميّل،

والذين لم « يتأقلموا » بعد مع « المدرسة السياسية الجديدة » التي بدأت معه عليهم أن يقلبوا مقاييس الرؤية لديهم وينظروا الى الامور بمنظارها الجديد :

« إنّ الظروف في حاجة الى تغيّرات وذهنيّة جديدة وطريقة جديدة في الحكم ليست طريقة بوس الايادي او بوس اللّحى».

وبالفعل فإنَّ صاحب هذا النهج الجديد هو الوحيد الذي لم يستجدِ أصواتاً لانتخابه بل سعت إليه المبايعة بالحكم، حتى من قبل العارفين بأنّ تأييدهم له سيعود عليهم بالخسارة الشخصية والضرر يُصيب أشخاصهم وعيالهم وبيوتهم ومصالحهم وممتلكاتهم. وهكذا أصبح الاقبال على الانتخابات الرئاسيّة، على يد بشير الجميّل، تضحية في معرض أداء الواجب لا فرصة للغنم والإثراء او لنيل وعود بالمكافأة السياسية في المستقبل.

ما هي سائر مواد البرنامج الرئاسي ؟ إنّه دستور كامل للبنان في عهد البشير : إنهاء الوجود الغريب، نبذ الحلول النصفيّة، معالجة مشكلة بيروت، التعامل مع سوريا، مقاومة فكرة الحزب الواحد، قضية الصلح مع اسرائيل، هويّة لبنان، إحلال حكم قوي و إيجاد دولة قوية، التجنيد الإجباري، العناية بالجيل الجديد ووضع صيغة للمستقبل...

وقد اعتبر الجميع أنّ الإعلان ــ البرنامج يدخل في « مسائل جديدة » لافتة ومهمّة تنطلق من قناعات سياسية ووطنية ومبادىء أساسية تُوجّه العمل السياسي، منها :

« ١ ـــ التأكيد على وحدة لبنان من ضمن الحدود الدستوريّة والدوليّة المعترَف بها.

٢ ـــ إرساء أسس جديدة للبنان المستقبل الديمقراطي القوي.

٣ ـــ الوعي عند العائلات الروحية، والمناطق اللبنانية المختلفة، لأنّنا لا نستطيع الاستغناء بعضنا عن بعض، وليس هناك أيّ غريب يستطيع ان يتفاهم معنا بمقدار ما نستطيع التفاهم في ما بيننا.

٤ ـــ لبنان لا يُمكن ان يكون مستقرّاً إذا لم تكن الشرعية اللبنانية وحدها الحاكمة على الأرض اللبنانية.

٥ ـــ بقاء المؤسّسات، لأن استمراريّة لبنان لا يُمكن أن تتأمّن في خارج هذا الإطار... ».

كذلك رأى بشير الجميّل أنّ لا بدّ من « خلق تفاهم لبناني جديد بيننا كلبنانيين لممارسة ديمقراطيّة صحيحة، لإرساء قواعد العدل والمساواة بيننا » بغية الوصول الى الدولة القادرة المالكة لقرارها، والتي يسود فيها حكم القانون على اساس المساواة بين جميع مواطنيها، وتتمتّع بقوّتين فعّالتين هما القضاء وأداته التنفيذية من جهة، والجيش من جهة ثانية.

وقد جاءت طروحات بشير الجميّل تُشكّل المخرج للأزمة الراهنة لأنّها تعيد مبادرة الانقاذ الى اللبنانيين، وتؤكّد على ضرورة وعيهم

لمشكلاتهم التي يجب أن يُعالجوها بأنفسهم وعياً يتجسّدُ بقيام ميثاق وطني جديد يخلق القضية الوطنية بتضامن من جميع اللبنانيين.

إنّ منطق الدولة القوية هو الذي يُحدِّد أسس العلاقات مع الدول الصديقة والشقيقة، بحيث لا يكون لأيّ منها امتيازات على حساب السيادة الوطنية، وقد أعطى الشيخ بشير الجميّل التعامل مع سوريا كنموذج لعلاقات لبنان الدولية اذ أوضح أنّ العلاقة مع سوريا تكون علاقة الندّ بالندّ على أسس الاحترام المتبادل، دون أن يُشكّل لبنان مصدر قلق لسوريا.

إنّ الدولة القويّة التي طرح أسسها الشيخ بشير الجميّل هي الخيار ـــ المفترق في حياتنا الوطنية والطريق الى المستقبل الذي ننشد. دولة قوية عادلة تحمي فلا تُرهق، وتدافع عن حق فلا تظلم، ما دامت المعطيات الأساسيّة التي أعلنها أصبحت عند اللبنانيين بحكم اليقين :

إنّ ارادة العيش المشترَك لدى كلّ اللبنانيين أقوى من كلّ مشاريع التقسيم، ولبنان ليس معرَّضاً للتقسيم إنّما لأن يتقاسمه الغرباء. فالتقاء كلّ اللبنانيين في مقاومة واحدة يكفل اتحادهم في دولة تساوي في ما بينهم.

وتُشكّل هذه المعطيات الأوّلية منطلق تحرير القضية اللبنانية من إشكالاتها المحلّيّة.. ومداخلاتها الإقليميَّة ومؤشّراتها الدوليّة لتصبح لبنانيَّة صرفاً.

لقد عاش اللبنانيون أكثر من محنة في تاريخهم.. وخرجوا بتسويات لم تُوحِّد ايمانهم بلبنان. إلّا أنهم اليوم يقفون على حقائق أساسية ستحوّل المعاناة يقيناً لتوطيد المبادىء التي أعلنها القائد وعمل من اجلها، وهي : الولاء المطلق للبنان، الملازم لوحدته، خلق مفهوم وطني للدولة يجعلها غرسة نعنى بها لا ثمرة نقطفها، التقاء اللبنانيين لتكوين مجتمع مميَّز، الخروج بصيغة دستورية لمبدأ التعايش بين مختلف المجموعات الحضاريّة في لبنان.. مساويةً في الواجبات والحقوق بين اللبنانيين، ممارسة دور لبنانيّ فعّال في منطقة الشرق الاوسط.

إنّ التزام هذه المبادىء يجعل من القضية موضوع حوار وتطوير يتلاقى عندهما اللبنانيون لترسيخ صيغة تعايشهم وتجذير إرادتهم في اللقاء البنّاء.

كلّ هذه المعطيات والمبادىء والقناعات اختصرها بشير الجميّل بصيغة ميثاق وطني قد يكون بداية الطريق الى المستقبل القريب.

أمّا صيغة الميثاق فقد أعلنها في عيد تأسيس الكتائب الخامس والاربعين.. من ضمن القواعد الأساسية لتصوّر حلّ الأزمة اللبنانيّة.

« تأكيد توافق اللبنانيّين على أن أيَّ خلاف في ما بينهم لا يستدعي بتّه الاحتكام الى السلاح إنّما اعتماد التفاوض السياسي وسيلة لإرساء صيغة الاتفاق اللبناني، على أن تستند أيُّ صيغة الى ثوابت ضامنة للكيان اللبناني وهي :

وحدة الأرض، والأمن والحريّة والعمل لكلّ اللبنانيين في ظلّ النظام الديمقراطي، مع الانتماء الطبيعي للبنان الى محيطه. فتوافق اللبنانيين لأجل الكيان ضمان للحرّيّة والسيادة، وتوافق اللبنانيّين على أسس الحرّيّة والعدالة والمساواة ترسيخ للكيان ومشاركة في صنع التاريخ ».

الى هنا ينتهي أهمّ ما جاء في إعلان ترشيح بشير الجميّل للرئاسة، وقد رأينا ما فيه من جديد على الرؤية السياسية لرجل الدولة اللبناني الذي لم يكن يُدلي في مثل هذه المناسبة إلّا بالعبارات العاطفيّة والإنشائيّة، ولا يتناول شؤون البلاد إلّا وانطلاقاً من أفق ضيّق ونظر محدود. ولعلَّ هذا ما دفع الصحف والمجلّات في لبنان والخارج الى ان تُسمّي جمهورية بشير الجميل « الجمهورية الثانية » تدليلاً على انها تقطع ما بينها وبين جمهوريات الماضي في لبنان لتنشيء دولة جديدة.

أمّا نحن فإذا كنّا نتوقف عند نقطة من نقاط هذا البيان، فعند مشكلة بيروت ووجوب تجنيبها الكارثة التي حلّت بها. لقد وعى الشيخ بشير ما يتربّص ببيروت اذا لم يُجرَ تدارك أمر الوجود المسلَّح الغريب فيها، ودعا الى إنقاذها قبل فوات الأوان كما دعا من قبل، ودعا والده الشيخ بيار الجميّل ودعا حزب الكتائب الى تدارك مصير الجنوب ودَرء خطر الاجتياح الاسرائيلي عنه، بوقف الممارسات الفلسطينية المسلَّحة التي تجري على أرضه وانطلاقاً منها، فصُمَّت الآذان عن نداءاتهم لا بل أُتهموا بكل فريّة ردّاً على دعواتهم المخلصة هذه. وقد قال الشيخ بشير

مرة : « **مصيبة الإخوان أنّهم يصلون الى رأينا متأخرّين. فعندما كنا نقول بوجوب تسليم الجيش اللبناني زمام الأمن في البلاد وزمام الدفاع عن الجنوب كانوا يرفضون بحجّة أنّ الجيش انعزالي وفئوي، واليوم أصبحوا يُطالبون بالجيش. وعندما كنّا نقول بوجوب الحوار والتوصّل الى حلّ سياسي للأزمة كانوا يرفضون التفاوض معنا بحجّة أننا متعاملون مع اسرائيل، واليوم أصبحوا يُطالبون بالحلّ السياسي** »

وهكذا حصل ما حصل، في الجنوب وفي الشوف وبيروت، بسبب تجاهل تحذيرات الكتائب والشيخ بشير والإصرار على الممارسات الرعناء « التي كادت أن تُضيع لبنان دون ان يستردّ شبراً من فلسطين ». وقضية بيروت بالذات هي التي تناولها الشيخ بشير في إعلان ترشيحه قائلاً : « **كنت أوّل من لَفت النظر الى خطورة الوضع في بيروت الغربية وضرورة إنقاذها. وإنّ السبب الاساسي للمشاركة في هيئة الانقاذ كان محاولة ايجاد مخرج لبيروت. فقد قبلنا بالاجتماع من ضمن هيئة الانقاذ لنحاول مساعدة الرئيس سركيس والرئيس الوزّان والسيد فيليب حبيب على إيجاد الحلول الكفيلة بإخراج الفلسطينيين من هذا المكان لتجنيب بيروت الكارثة، ثم حاولنا بكلّ الوسائل المتوافرة أن نخفّف من وطأة المأساة التي كانت بيروت تعيشها بفتح الممرّات وتوفير أجواء الأمن للأشخاص الذين كانوا يهربون منها. ففتحنا لهم كلّ المجالات، ليكونوا معنا بكلّ أمن وطمأنينة وبين أهل وأصدقاء لهم، ولنحاول مساعدة الذين بقوا في**

الداخل. واتصالاتنا كانت تتكرّر وتتوالى في سرعة بالقيادات المختلفة في المنطقة الغربية، لنجد كلبنانيين السبل التي يُمكن ان نتعاون لإيجاد الحلول. وكانت هذه الاتصالات مشجّعة جدّاً وإيجابيّة، إنّما الهيمنة الغربية في بيروت الغربيّة كانت تصل بالاتصالات الى حدّ لم نستطع تجاوزه».

وهيئة الإنقاذ هذه، كان الشيخ بشير أوّل من لبّى الدعوة الى المشاركة فيها لوضع يده بيد جميع الأطراف اللبنانية وتقديم مصير الوطن، الذي غدا مطروحاً، على جميع الاعتبارات. لقد رضي الشيخ بشير بالالتقاء بخصومه السياسيين وخصومه في الساحة العسكرية المتحالفين مع القوى الغريبة المتسلّطة على لبنان.. أملاً بأن يكون لدى هؤلاء بقيّة من وطنيّة تدفعهم، في تلك اللحظات الحاسمة، الى إعلاء مصلحة وطنهم العليا على كلّ ما سواها. إلّا أنّهم، كالعادة، راحوا يتلهّون بشكليات « التمثيل المتوازن » في الهيئة، ومكان اجتماعها، ومن يجب ضمّه إليها ومن يجب إخراجه منها إلخ... شروط وشروط، أدّت الى احتضارها في المهد.. وضياع الفائدة العظيمة التي كانت مرتجاة منها على صعيد اتّقاء ما حصل من بعد.

كان هذا موقف الشيخ بشير الجميّل الإيجابي من هيئة الإنقاذ، في الوقت الذي كانت قد انقلبت موازين القوى في لبنان، بحيث غدا هو الذي يستطيع أن يُملي شروطه بينما يسعى الباقون وراءه طالبين التفاهم معه. ولكنّه لم يفعل، بل تناسى كلّ شيء وقبل بالتطوّع للمهمّة الإنقاذيّة بدون قيد ولا شرط، في حين راح من كانت تدور عليهم الدوائر

« يتغنّجون » متمسّكين بكل ما هو ثانوي وشكلي فيما الوطن يحترق. ونتساءل بعد كيف أوصل هؤلاء لبنان الى الوهدة العميقة التي يتقلّب الآن في قعرها ويرنو ببصره الى رئيسه الجديد لانتشاله منها بالقدرة والعزيمة اللتين لا يملكهما سواه.

دور المجلس النيابي

دائماً في الساعات المصيرية بلبنان، ورغم أنّ الأحداث كانت تتخطّى الى حين إمكان معالجتها برلمانيّاً وسياسيّاً، كان تلافي الوقوع في الهوّة النهائية يأتي دائماً على يد المجلس النيابي.

هكذا حدث في العام ١٩٥٨، يوم انتخب المجلس اللواء فؤاد شهاب رئيساً، فوضع بذلك حدّاً لثورة دامت ستة أشهر وكانت ستتطوّر الى انشقاق وطني لولا هذا الانتخاب. وهكذا حدث في العام ١٩٧٦، يوم أقبل النواب تحت وابل القذائف والرصاص الى قاعة المجلس ينتخبون الرئيس الياس سركيس تلافياً لحصول الفراغ الدستوري في البلاد، فأبقوا بذلك على رمز الشرعيّة وحفظوا للدولة مؤسّساتها التي مهما ضعفت في وقت من الأوقات فالمهمّ ألّا تغيب غياباً كاملاً وأن يظلّ لها وجود قانونيّ.

واليوم، في هذا الاستحقاق الدستوري الأخير عام ١٩٨٢، برهن ممثلو الشعب ايضاً عن جدارتهم بحمل الأمانة الموكلة اليهم، إذ، حين

كان يتصوّر الكثيرون أنّ انتخابات رئاسة الجمهورية يتعذّر إجراؤها لأسباب أمنيّة من جهة ولتعذُّر الاتفاق على رئيس من جهة ثانية، ولِما هناك من عوامل محليّة و إقليميّة ودوليّة تتداخل في المسألة، إذا بأعضاء المجلس النيابي يضربون عرض الحائط بجميع هذه الاعتبارات، ولا يستجيبون إلّا لداعي الواجب الوطني ومسؤوليّتهم تجاه الأمّة، فيُحقّقون الانتخاب ويجعلون نتيجته تأتي وفقاً لرغبة الشعب وغير مخيِّبة لأمله، في أن يرى على رأس الدولة رجلاً قاد صمود اللبنانيّين الى النصر، ويستطيع وحده أن يقلب صفحة الواقع الدامي الذي عاشته البلاد حتى اليوم، ليكتب في تاريخها صفحةً سعيدة من السلام والهناء والازدهار.

ولقد كان لكلّ نائب من تلك الأكثرية النيابية التي كانت وفيّةً لواجبها الوطني والتمثيليّ، دوره في تحقيق هذه الخطوة الجليلة وتوفير الفراغ والمصير المجهول على البلاد، بدءاً برئيس المجلس الاستاذ كامل الاسعد الذي قدَّم بموقفه الشجاع دليلاً جديداً على تمسُّكه بالديمقراطية وبواجبه الدستوري، الى جانب حرصه على دور المجلس النيابي في الحياة السياسية اللبنانية وعدم التنازل عنه، اذ أقدم على تعيين موعد لجلسة انتخاب رئيس للجمهورية، ضمن المهلة التي ينصّ عليها الدستور رغم الاصوات المغرضة التي ارتفعت مطالبةً بتأجيل هذا الموعد بحجج وذرائع مختلفة، ورغم الظروف التي بدت غير مشجّعة على تحديده، شعوراً منه بالذيول الخطيرة التي تترتّب على البلاد من جرّاء عدم استمرار الشرعيّة فيها.

ولم يكن هذا الموقف مستغرباً من الرئيس الاسعد وهو الذي أمّن قبل ستّ سنوات عقد الجلسة التي انتُخب فيها الرئيس سركيس تحت الحراب والرصاص، حيث وقف الكلّ وقفة إجلال أمام تحسّس رئيس المجلس والنواب بالمسؤوليّة الوطنيّة وتدفّقهم على المجلس النيابي في قصر منصور الواقع على خط التماس، مخترقين جدار القنص لا بل القذائف التي كانت تنهمر في ذلك المكان لتعطيلْ الجلسة.

ثم أمّن الرئيس الاسعد للرئيس سركيس جلسةً لقسم اليمين الدستورية في شتورة اذ لم تسمح الظروف الأمنيّة بعقد هذه الجلسة في بيروت، فتحدّى رئيس المجلس بذلك جميع المعوقات التي كانت تحول بين المجلس النيابي وبين ممارسة واجباته، وتغلّب على أوضاع ليس باليسير تخطّيها ليبيّن للعالم كلّه قيمة ممثّلي الشعب في لبنان، ونوعيّة النائب اللبناني، عندما تتوقّف على عمله مصلحة الوطن العليا.

وقد كان الرئيس الاسعد قدوةً للنواب في هذا التصرّف المشرّف، فكما أقبلوا على انتخاب رئيس الجمهورية في العام ١٩٧٦ معرّضين حياتهم للخطر، أقبلوا أيضاً على انتخابه في العام ١٩٨٢ متعرّضين، في عدد كبير منهم، لشتّى انواع الانتقامات التي طالت بيوتهم وأملاكهم وأنسباءهم وقد تطالهم هم بالذات. إلّا أنّهم، في الماضي والحاضر، لم يأبهوا للأذى الشخصي الذي لحق او كان ممكناً أن يلحق بهم، تجاه تجنيب وطنهم أذىً أعظم بكثير فيما إذا لم يقوموا بما كان مطلوباً منهم أن يقوموا به كواجبٍ نيابيّ ملحّ.

ولم يقتصر الرئيس الاسعد على مثل هذه الوقفات الرائعة في مواعيد انتخابات رئاسة الجمهورية فقط، بل كان، على مدى سنوات الحرب الثماني، حافظاً للمجلس النيابي وجوده ودوره وسط شلل المؤسّسات بصورة عامة وانعدام النشاط فيها، فبقيت مؤسّسة مجلس النواب شاهداً بارزاً وحيداً على بقاء المداميك الأساسيّة لوجود لبنان ـــ الدولة، ولو تعطّل كثير من المظاهر الأخرى لهذا الوجود.

ومثلما فعل الرئيس كامل الاسعد الزعيم الشيعيّ الكبير فعل أيضاً الزعيم الدرزي الكبير الأمير مجيد الاسلان، فإذا موقفه من هذا القبيل لا يختلف عمّا ألفناه من صفاء لبنانيّة مشهودة في الأسر الدرزيّة ذات الفضل التاريخي على كيان لبنان الحاضر لأنّها في أساس نشوء هذا الكيان. فقد حمل الامير الأرسلاني سنيه وعجزه الصحيّ وراح الى المجلس يُعبّر عن إرادة الدروز الأشاوس في تطلّعهم الى رئيس للبلاد لا كالرؤساء، كما حمل زميله النائب بشير الاعور ايضاً ضعفه ووهنه وعبَّر التعبير نفسه في ندوة الشعب، مصرِّحاً كلاهما بأنّ الرئيس الذي فاز بصوتيهما وأصوات زملائهما النواب هو الذي تتطلّع إليه الأنظار وتُعقد عليه الآمال، لأنّ بلداً أصبح رميماً كحال لبنان بعد الحرب المدمِّرة التي برَّحت به، لا يُنهضه من الحضيض ويُعيده الى العزّة والازدهار، غير رجل كبشير الجميّل.

ومن خارج المجلس النيابي كان موقف الأمير فيصل ارسلان لا يختلف عن موقف والده الكريم، معلناً هو الآخر أنّ أمنية لبنان تحقّقت

بمجيء الشيخ بشير الجميل الى الحكم. وكذلك موقف سيّد البيت الجنبلاطي الذي ينبغي ألّا يغيب عن أذهان اللبنانيين أنه حجر زاوية من حجارة بناء وطنهم مهما غطّت ظروف عابرة على هذه الحقيقة الناصعة. وقد تجلّى موقف وليد جنبلاط بإقبال نائبين من نوّاب حزبه على حضور الجلسة الانتخابية والتصويت لمرشّح ضمير لبنان، بدليل ما لحق بهما بعد الانتخاب، وهذا ليس بالقليل من رئيس الحزب التقدّمي الاشتراكي ورئيس « الحركة الوطنية » أخذاً لظروفه بعين الاعتبار.

أمّا كاظم الخليل فتصرُّفه النبيل لم يكن جديداً على احد، وهو الوفيّ للبنانه ولبنانيّته منذ دخوله المعترك السياسي، ما قبل عهد الاستقلال، وقد تحمَّل من اجل ذلك، في الأحداث الاخيرة، هجراً وتهجيراً من مدينته صور، وقد أعلن بدوره، على غرار مَن أسلفنا من الزعماء، أنّ انتخاب بشير الجميل واجب على كلّ من يهمّه خلاص بلده وعودة لبنان الى دنيا السعادة والمجد.

أمّا وزير الدفاع الوطني جوزف سكاف فقد نسي نفسه نسياناً تاماً عندما قطع إقامته في المستشفى بباريس، متحضّراً لإجراء عمليّة جراحيّة ضروريّة، وعاد الى لبنان مضطراً الى وضع المصل في عرقه بالطائرة ليقوم بواجبه الانتخابي، متحدّياً بذلك نصيحة الأطباء الذين لم يسمحوا له بمغادرة المستشفى والسفر ففعل ذلك على مسؤوليّته. واذا لم يكن مثل هذا العمل مثالاً على التحسّس بالواجب الوطني فكيف يكون هذا المثال ؟

والنائب الدكتور ألبير مخيبر، الذي تخلّف عن حضور جلسة الانتخاب، أعطى بذلك مثلاً ساطعاً على احترام الديمقراطيّة وحرّيّة الرأي في لبنان وعلى الأخصّ من جانب المرشّح للرئاسة والعاملين من أجل وصوله إليها. وقد قالها له الرئيس المنتخب بنفسه، عندما زاره بعد الانتخاب، مشيراً الى أنّه أسدى، بغيابه عن الجلسة، خدمةً جلّى للديمقراطيّة في لبنان، بإثباته أنّ احداً لا يَطغى على إرادة النائب في استخدامه للثقة التي أولاه الشعب إيّاها. وقد كان موقف الدكتور مخيبر ثميناً في نظر الرئيس الجديد الى درجة أنّه جعله موازياً وحده للأصوات الاثنين والستين التي أمّنت النّصاب للجلسة.

والنائب عبده عويدات، من جهته، أعلن أنّ انتخاب الشيخ بشير لرئاسة الجمهورية شيء طبيعي في بحثنا عن رجل الساعة. أمّا النائب عثمان الدنا فرفض ان يُملى على النائب اتجاهه في استعماله لحقّه النيابي، معلناً أنّ النائب مطلق التصرّف في استعماله لهذا الحقّ.. ولا يُحاسبه غير الشعب بإبقاء ثقته به او بسحبها منه. والرئيس عادل عسيران تحامل، هو ايضاً، على نفسه وتوجّه الى المجلس يُدلي بصوته للشيخ بشير الجميل وهو مرتاح الوجدان والضمير الى انه أحسن الاختيار من اجل إنقاذ لبنان.

ولم يكن موقف الوزير محمود عمار، ومواقف النواب حسين منصور وعلي العبدالله وصبحي ياغي ومنيف الخطيب وسليمان العلي وطلال المرعبي وعبد اللطيف الزين ورفيق شاهين وانور الصبّاح ويوسف

حمود، مختلفة عن المواقف التي ذكرنا، اذ كلّهم جاهر بأنّ انتخاب الشيخ بشير الجميل لحمل العبء الكبير في المرحلة الدقيقة القادمة، كان اختياراً سليماً وُضع بموجبه الرجل المناسب في المكان المناسب.

ولن نتكلّم، في هذا المجال، عن موقف النواب المسيحيّين الذين اعتنقوا منذ البدء القضيّة التي رفع لواءها بشير الجميل وتوحّدوا معه إيماناً ورسالة، فاختاروا باختياره نصرة قضيّتهم نفسها.

إلّا أنّنا لن نغفل عمّا فعله كبار المسؤولين، مسيحيّين وغير مسيحيّين، استجابةً للداعي الوطني مما كان له أثره البالغ في إعطاء قوس الرئاسة باريها، بدءاً بفخامة الرئيس الياس سركيس الذي رفض جميع الضغوط والطلبات بالتمديد له مدةً إضافيّة، ومروراً بدولة الرئيس شفيق الوزّان الذي حافظ كلّ المحافظة على مستواه كرئيس للحكومة يعتمد الإيجابيّة ولا يخرج على مقتضيات المسؤوليّة، وبدور وزير الخارجية فؤاد بطرس الذي عمل للبنان في المحافل الدولية بمقدار ما عمل له المناضلون في الداخل.. وساهم في وصول المناضل الأوّل الى المنصب الأوّل ليتابع منه نضاله بالوسائل التي يضعها في يديه موقعه الجديد، وأخيراً ولا آخراً دور وزير البرق والبريد والهاتف ميشال المرّ الذي بذل تضحيات شخصيّة كبيرة خلال سنوات الحرب كلها في سبيل القضية التي دافع عنها بشير الجميل والذين تجنّدوا لها معه، وكان له جهود جبّارة في معركة انتخابات الرئاسة ساهمت في مجيء نتيجتها وفق ما يريده اللبنانيون.

خلاصة استعراض هذا السلوك القويم والجريء من جانب النواب والمسؤولين، أنّهم حقّقوا به انتصاراً للديمقراطيّة في لبنان، انتصاراً شهد به المراقبون البرلمانيّون الأجانب الذين استدعاهم الرئيس الاسعد من المجالس النيابية الأوروبية، لمشاهدة عمليّة انتخاب الرئيس اللبناني، فذُهشوا لما لمسوه من أصالة الروح البرلمانيّة وعمق الوعي السياسي وسموّ التحسّس بالمسؤولية الوطنية عند ممثّلي مختلف فئات الشعب، اذ رأوا أنّ الحرب التي أكلت أخضر لبنان ويابسه، لم تمسّ الجوهر في شيء، ولم تقضِ على ما يضعه أبناء هذا الوطن والمعبّرون عن إرادتهم في منزلة المقدّسات، فإذا لبنان، عبر هذا الانتخاب الرئاسي، نموذج عالميّ يُقتبس عنه، ويُستلهم منحى رجاله السديد في الأيّام والساعات العصيبة.

ويبقى أن نُشير بأن الديمقراطيّة التي انتصرت بانتخاب بشير الجميّل رئيساً للجمهورية، كانت انتصاراً لحقوق الجماهير المؤمنة بالعدالة والحق والحريّة، وقد عبّرت عن فرحتها بهذا الانتصار في زحفها الشعبي الى منزل الرئيس الجميّل في بكفيا للتهنئة والشكر والمطالبة بالسلام الذي افتقده اللبنانيون طوال ثماني سنوات من الحرب والخراب والدمار والتشريد والتهجير. والرئيس بشير الجميّل رفع منذ اللحظة الأولى لانتخابه شعار « **وحدة لبنان وعودة السلام الى ربوع الوطن** »، وقال: « **أتعهّد بأن أكون للجميع محقّقاً العدل والسلام كما أتعهّد بأن لا أكون فئوياً ولا حزبياً** ». وعندما زار حزب الكتائب مودّعاً قال: « **يجب ألّا ندمج بين الحزب والدولة وألّا نُفسح في المجال أمام**

هيمنة الدولة على الحزب، ولا الحزب على الدولة .. لقد توصّل الحزب الى الحكم، ولكن على الجميع أن يعرف الحدود التي يجب أن يقف عندها ...» ثم إنّه في كل زياراته التي قام بها الى النواب والشخصيات السياسية والدينيّة شاكراً موقفها من انتخابات الرئاسة، شدّد على أهميّة وحدة لبنان واعتبار رئيس الجمهورية متعالياً عن الأحزاب والتيّارات، وأعلن أنّه سيسعى الى جمع القوى المتعدّدة في البلاد حول الشرعية للحفاظ على حدود لبنان وسلامة أراضيه وصون سيادته واستقلاله، ونشر العدالة والمساواة والاستقرار والبدء بورشة الإنماء والإعمار ... وكم كان وفاؤه كبيراً عندما زار معاقيّ الحرب في بيت شباب وقال لهم: « **أودّ أن تكون كلمتي موجّهة الى كلّ مصاب لبناني في الحرب والى كل الشهداء اللبنانيين الذين ماتوا معاً للبنان ...»** وأضاف: « **ويجب أن يتّحد مصابو الحرب ويتّحد الانسان والارض والشعب، ثم نطلب من كلّ الغرباء الذين كانوا سبب هذه المحنة أن يُغادروا الى بلادهم، لنعود نحن اللبنانيين أوفياء للشهادات التي قُدّمت، فيبقى لبنان واحداً سيّداً حرّاً مستقلاً** ».

الى هنا والكلام، في هذا الملفّ، على عمل الفتى الذي نهض من بين صخور لبنان، آخذاً عنها صلابتها رغم نعومة اظفاره، ليقف صخراً في وجه ما كان يُبيَّت لوطنه .. ويستطيع، بهذا التمرّد، أن يحبط الخطّة الجهنّميّة، ويُحقق انتصاراً تاريخيّاً من انتصارات الحقّ على الباطل. ولنا موعد مع القارىء في ملفّ لاحق، هو الثاني في هذه المجموعة،

نستعرض فيه الفصل التالي من جهاد بشير الجميّل من على كرسي المسؤوليّة، مواصلةً لجهاده الذي بدأه في صفوف الشباب والشعب وأوصله، بثقة هؤلاء، الى الاضطلاع بالمسؤوليّة الرسميّة الضخمة التي أُسندت إليه.

حكمُ التَاريُخ

... وأخيراً عندما سيقف المؤرّخون فيّ الآتي من الأيام، لاستجلاء حقيقة ما جرى من احداث جسام فوق هذه الأرض اللبنانية في حقبة من أصعب حقبات التاريخ وأشدّها خطراً على الكيان والمصير،

وبعد ان تنقضي هذه الحقبة بكلّ ما فيها من حقائق وأضاليل، وبكلّ ما فيها من وقائع ومحاولات لتشويهها، وبكلّ ما فيها من امور ظاهرة وبواطن خفيّة.. سيأتي دور الحَكَم العدل، دور المغربل الذي يمرّ كلّ شيء في مصفاته ليتميّز القمح عن الزؤان ويصحّ الصحيح وحده، سيأتي دور التاريخ بإصداره القرار الفصل وردّ الفضل لأصحابه الحقيقيّين، مُديناً المتآمرين والمتواطئين والخونة، والمخطئين والمقصّرين والهاربين والعاجزين والجبناء.

وحينئذٍ، عندما تصبح الكلمة لهذا الشاهد الصادق، ما عساه أن يقول ؟

ما عساه أن يقول مدرِّس التاريخ لتلاميذه وهو يحدّثهم عن أصعب فترة عاشها وطنهم في القرن العشرين ؟

ما عساه ان يقول لهم ساعة لا يعود من مجال للاغترار بدعايات وادّعاءات، وللتأثر بالأساليب الإعلاميّة التي تُحيل السواد بياضاً وبالعكس ؟ إنه سيقف كمن أدّى يميناً في محكمة ــ والتاريخ هو محكمة الأجيال ــ ليروي لهم الأحداث وخلفيّاتها وأبعادها، ليخبرهم عن الأوضاع التي كانت سائدة، والاهداف التي كان يسعى إليها الفرقاء واللعبة التي تمّت على مسرح البلد في النتيجة، كلّ ذلك كما حصل في الحقيقة وبعيداً عن التزييف والتزوير والباطل على أنواعه، واذ ذاك لن يكون بوسعه ان يُنكر عليهم أن تاريخ لبنان آنئذٍ قد اقترن باسم بشير الجميل، وأنّ الفتى الأغرّ فرض وجوده على المرحلة وأثّر أبلغ التأثير في مجرى الأمور، وان سجلّات كثيرة لم تكن ناصعة في خلال تلك الفترة.. ويكفي بشير الجميّل ان يكون فيها صاحب السجّل الأبيض النقيّ، وان تاريخ لبنان الحقيقيّ لم يكن قد كُتب قبل ذلك.. وهو من هذه اللحظة قد بدأ يُكتب.

وأستاذ التاريخ هذا، في المقبل من الأيام، سيُفضي بالاعترافات الصريحة التي لا يجرؤ على الإدلاء بها أحد في الوقت الحاضر. سيقول انّ شراسة العدوان على لبنان، والأعداد الهائلة التي جُنِّدت له، والعدّة الضخمة التي وُضعت بتصرّفه والجهات القويّة الدافعة إليه والمؤيّدة له، والعزلة التي وَجَد لبنان نفسه فيها اذ عزَّ النصير وتوارى الصديق

والحليف، كلّ ذلك فعل فعله في النفوس حتى أوشك أن يُضعف من عزيمة الصمود و إرادة المقاومة، لكنّ وقوف بشير الجميّل تلك الوقفة المتحدّية القوى جميعها، والثابتة على كلمة واحدة لا تراجع عنها ولا نقاش فيها ولا تعديل لها ولا مساومة بشأنها، عبّأ الطاقات من جديد وشحن النفوس والإرادات بروح مقاومة لا تُقهر.

كلامٌ لا حصر له سيقوله استاذ التاريخ لطلّابه. فالمادة واسعة غنيّة، والحقيقة لا حَرَج في إعلانها ولا حسيب عليها. ومن هذا الكلام أنّ اللعبة التي كان لبنان فريستها ذات حبكة دوليّة، وأنّها مشغولة ببراعة ووراءها دوائر سرّيّة وجهات تتمتّع بكامل القوّة والقدرة على الوصول بها الى النهاية المرسومة لها، وان في جعبة هذه الدوائر والجهات ألف حيلة ووسيلة لإحباط المساعي الهادفة الى وضع حدّ لِما يجري و إنهاء المحنة القائمة، كما لديها جميع الإمكانات لإزالة الصعوبات التي تعترض طريقها. فمحاولة عرقلة سير هذه الآلة الرهيبة ووضع العصي في دواليبها عمليّة خطرة لا يُعرف الى اين تؤدّي بمن يركب رأسه ويتطوّع لها. ومع ذلك فقد وُجد الشخص الذي ارتضى ان يشرب هذه الكأس ويُغامر هذه المغامرة، فاستنهض الهمم وحشد حوله جماهير الشباب غير ناظر و إيّاهم الى عواقب فعلتهم، لأن المدرسة الكتائبيّة علّمتهم أن لا تحفّظ ولا اعتدال، ولا حسبان حسابات ولا حفظ خط رجوع عندما تكون المسألة مسألة مصير لبنان. وهكذا وُجد الحاجز المنيع في وجه ما كان يُطبخ ويُعَدّ لهذا الوطن، فسلم في النهاية على يد هذه الفئة من الشباب التي لم يكن من سبيل الى معالجتها بأيّ شكل من الأشكال غير

الرضوخ لإرادتها في رفع اليد عن لبنان.

ولن يغفل استاذ التاريخ عن القول لتلاميذه إنّ ركوب بشير الجميّل رأسه واختياره هذا المسلك الوعر لم يمرّ بسلام بالنسبة إليه شخصيّاً، اذ جاءه الإنذار الأول عندما احتجزه الفلسطينيون في مخيّم تل الزعتر في اوائل الأحداث وكادوا يقضون عليه لولا اتصالات حثيثة وتدخّل جهات فاعلة. وجاءه الإنذار الثاني عندما أطبقت عليه « قوات الردع » الموجودة يومها في الأشرفية وأرادت احتجازه.. فأوشك الحادث أن يُسفر عن اصطدام مروع. ثمّ جاءه الإنذار الثالث عندما اكتُشفت، في آخر لحظة، خطّة تفجير كان يستهدفه وهو في طريقه الى مقرّه في المجلس الحربي الكتائبي. وتعدّدت الإنذارات الى ان جاءه الإنذار الأشدّ وقعاً عليه باغتيال الطفولة البريئة في شخص ابنته « مايا »، وهو العمل الذي صوّر لمخطّطيه أنه سوف يكون كافياً لكي « يتّعظ » بشير الجميّل وينسحب من المسرح السياسي والعسكري فاهماً مغزى هذه « الإشارة » المؤلمة التي خوطب بها. لكنّ بشير الجميّل الوالد ذا الحسّ الأبويّ والإنساني الرهيف، والذي بكى دماً وحيدته وأعزّ مخلوق لديه، لم يدع مجالاً لبشير الجميّل المناضل، حامل عبء لبنان على كاهله الغضّ، ان يتأثّر بالحادثة، فاستطاع ان يفصل ما بين العاطفة والواجب ليواصل ما نذر نفسه له غير ملتفت الى ما قد يُصيبه مجدّداً من جرّاء إصراره على إتمام الرسالة في تحقيق خلاص بلاده، معتبراً « مايا » واحدة من الخمسة آلاف شهيد الذين قضوا فداء عن

لبنان، لأنّ « من قتلوا « مايا » هم الذين يريدون قتل لبنان نفسه »، ومستعدّاً لدفع أيّة ضريبة أخرى قد تُفرض عليه في هذا الرّهان العسير الذي أقدم على خوضه والذي ربحه لوطنه في النهاية.

وسيستخلص مدرّس التاريخ العبرة ممّا ذكره، فيقرّر أنّ قوى العالَم بأسره لن تستطيع ان تفرض مشيئتها على شعب مهما كان صغيراً ومستضعفاً إذا وُجدت بين أبنائه فئة مؤمنة بقضيتها، متحدة اتحاداً كاملاً فيما بينها ومصمّمة تصميماً جازماً على عدم السماح للإرادات الغريبة بالنفاذ الى ما تبتغيه من شرّ في وطنها او عبره.

وسيستخلص ايضاً، تبعاً لذلك، أن القوة وحدها لا تكفي لقهر الشعوب اذا لم تجد ثغرات تنفذ منها إليهم، وأنّه لولا ثغرة الولاءات المتعدّدة في لبنان، وثغرة انتشار العقائد الغريبة المستوردة في بعض الأوساط، وثغرة انسياق عدد من اللبنانيين وراء المخطّط التآمري على بلادهم، لولا هذه الامور المؤسفة لَما أمكن لقوّة على وجه الأرض ان تفعل ما فعلت بهذا الوطن، وإنّ تضامن فئة من الشعب اللبناني تضامناً كاملاً مع « الجبهة اللبنانية » و « الكتائب » و « القوات اللبنانية » وبشير الجميل كان كفيلاً بإحباط المخطّط.. فكيف بتضامن الشعب كلّه ؟

وسيُعطي معلّم التاريخ الأمثولة لطلّابه بأنَّ الأقدار تهيّء للأوطان دائماً، في اللحظات الحالكة من تاريخها، رجال الساعة الذين يقلبون الوضع رأساً على عقب ويُحقّقون الإنقاذ حين يكون الأمل قد أصبح

شبه مفقود لدى الجميع، وان المنعطف المصيريّ الذي مرّ به لبنان في العقدين السابع والثامن من القرن العشرين قد أمكن تجنيب الوطن السقوط النهائي في هوّته بفضل وقفة غير منتظرة وقفها شابّ من لبنان بالتفاف حوله من أبناء جيله الشبّان ودعم من جبهة وحزب ورأي عام، فحدثت المعجزة وخرج الوطن سالماً من المحنة ولو دفع ثمناً غالياً لا بدّ منه في مثل هذه الحال.

وفي مدارس الغد في لبنان لن يقف معلّم التاريخ وحده يتحدّث عن هذه الحقبة من عمر الوطن حوالي نهاية الألف السادس من بدئه، بل سيتحدّث عنها ايضاً مدرّس مادّة التربية الوطنية والتنشئة المدنيّة.. حين يرسم لتلامذته ملامح المواطن الواعي قضيّة أمّته، ومناهج بسلوك المواطنين في الظروف المختلفة التي تطرأ على بلادهم، وأثر الوطنيّة المتأصّلة في النفوس، ونضج التفكير السياسي، والروح المدنيّة العالية والتخشّن والضراوة لدى الشباب في دفع المخاطر عن كيان وطنهم والدفاع عنه بما يضمن بقاءه مهما كان من شأن العدوان واستفحاله.

وسيركّز خصوصاً، استاذ التربية الوطنية هذا، على تخشّن (Endurcissement) الشباب، وضراوته (Agressivité)، وعلى تماسك المجتمع وشدّة مراسه وجدّيّة مواجهته للأمور، لأن ميوعة الشباب وتخنّثه من جهة، وانحلال المجتمع واستسلام أفراده للّهو والملذّات من جهة ثانية، هي منافذ السيطرة على الشعب دون مقاومة من جانبه، حتى لتسعى الدول العدوانيّة والتوسّعيّة الى إيجاد هذا الانحلال الاجتماعي في

البلدان التي لها مطامع فيها ليسهل عليها التحكّم بها والاستيلاء على مقدّراتها.

وسيأتي مدرّس التربية بالشواهد لطلّابه من التاريخ، فيذكر لهم أنّ الامبراطوريّة الرومانيّة التي وصلت الى أرقى درجات العظمة والسيطرة تفسّخت وانهارت عندما انتشى شعبها بهذه العظمة وراح يميل الى الحياة الناعمة الرَّخيَّة مبتعداً عن الجنديّة وعن الروح القتاليّة والإقبال على المصاعب والمشقّات. ومثل الرومان،العبّاسيون من العرب، ودولة الأندلس التي « بكى آخر خلفائها كالنساء مُلكاً لم يعرف كيف يُحافظ عليه كالرجال ».

كما يذكر لهم من جهة ثانية كيف استطاعت حيويّة الشعبَين الألماني والياباني أن تُعيد الازدهار لبلديهما في أقلّ من عشر سنوات بعد أن دمّرتهما الحرب العالميّة الثانية تدميراً يقرب من أن يكون تامّاً. ولن يغفل المدرّس ايضاً عن أن يورد لتلامذته مَثَل الشعوب التي أوجدت أوطاناً لها من العدم بعد أن كانت مشتّتة في أربعة أنحاء الارض، بفضل روحها الناهضة وتماسك جالياتها المتباعدة بعضها مع البعض، وتصميمها الأعمى على إنشاء وطن لها ولو كلّف ذلك تذليل المستحيلات.

وسيطبّق، حتماً، درسه هذا على المرحلة الدقيقة التي مرّ بها لبنان في السبعينات والثمانينات من خاتمة الألف الميلادي الثاني، وكيف شجّع من كانوا يُريدون القضاء عليه ظنّهم أنّ شبابه من النوع المدلَّل

المائع والمنصرف الى إشباع غرائزه فلا يُرجى منه حمل سلاح والدفاع عن كيان، وأنّ رجاله فاترو الهمّة ومتّجهون الى التجارة والكسب فلا يُمكن أن يتحوّلوا الى حياة الجهد ومواجهة الأخطار والموت... فإذا بالظنون والأحلام تخيب، لأنّ المتآمرين لم يُدركوا حقيقة الشعب اللبناني ولم يستفيدوا من الاطّلاع على تاريخه وماضيه. ففاتهم تعشّقه للحريّة حتى لا يعود يرى أمامه اذا هُدِّد بسلبه إيّاها، وتمسّكه باستقلاله الى حدّ استمداد قوّة من الغيب للحفاظ عليه متى لاح له احتمال فقدانه. وسيذكر استاذ المادّة أنّ عملاق وطنيّة وتمرّد أيقظ روح الانتفاض في شعبه وأحال شبابه اللّاهي، المحبّ للحياة، كتلة نار متأجّجة وفتياته أنفسهنّ أخوات رجال، فسجّل بذلك أسطع مثل لروح الفرد التي تؤثّر في المجموع وتحرّك فيه القوى الكامنة دافعة إيّاه الى تحقيق ما لا يتصوّره عقل، وأنّ هذا العملاق المتمرّد كان اسمه بشير الجميّل.

والعبرة التي سيخرج بها الاستاذ هي أنّ وعياً وطنيّاً كهذا، وحسّاً مرهفاً تجاه الواجب الذي يُمليه هذا الوعي وتكرّساً للعمل الوطني بدلاً من الانصراف إلى مباذل الحياة هي الصفات التي يجدر أن يتحلّى بها الشاب اللبناني خصوصاً في الظروف غير العاديّة التي تُحيط بلاده، وأنّ هذا النموذج للشاب اللبناني قادر، متى وُجد وعمّ صفوف الشباب، على أن يدفع كلّ خطر عن لبنانه مشكّلاً ذلك السور المنيع الذي تتكسَّر عليه جميع الأمواج العاتية وتتراجع عنه قوى الشرّ والطغيان. وسيُعطي معلّم التربية هذا، مثلاً مجسَّداً لهذا الشاب بشخص القائد بشير الجميّل والمقاتل اللبناني الذي نفخ فيه القائد روحه، وحوّله من

غرسة ليّنة تتمايل مع الريح الى جذع سنديانة لا يُقصف عوده إلّا وقد زلزلت الأرض بمن عليها.

وكالمعلّم في المدرسة الأهل في البيت. فقد اعتاد الأبوان في تربيتهما لأولادهما أن يَرويا لهم سِيَر عظماء الرجال وفضلائهم، تنشئة لهم على حبّ العصاميّة والأعمال الطيّبة، كما اعتادا توجيه أنظارهم الى كلّ مَثَل صالح دفعاً لهم الى الاقتداء به. ويا طالما حدّثاهم عن أبطال التاريخ اللبناني من هنيبعل، الى الأمير علّاقة، الى فخر الدين وابي سعدى ويوسف بك كرم... وعن مقدَّمي الجبل وقدّيسيه وقبضاياته... عسى أن تكون هذه الحكايات ممّا يزرع في نفوس الأبناء رغبة التمثّل بهؤلاء الكبار والتحلّي بخصالهم وفضائلهم. فكم سوف يجد كلّ ربّ وربّه عائلة لبنانية في المستقبل، في سيرة حياة بشير الجميّل، مادّة خصبة لتلقين الأولاد أروع مَثَل للانسان الأفضل، الإنسان الذي دفعته القِيَم التي تبشّر بها مدرسة أبيه وحزبه الى التخلّي عمّا يتجه إليه الشباب في سنّه الغضّة ليعمل كما يعمل الاشخاص النادرون الذين تجرّدوا من كلّ نزعة بشريّة وتعلّقوا بالقيم والمبادىء والمُثل العُليا فقط.

في المستقبل لن يحتاج أيّ أب وأمّ لبنانيّـين الى البحث في مطاوي التاريخ او كتب السيرة او الحكايات والأساطير ليجدا الشخصيّة التي يحدّثان اولادهما عنها. فهناك في تاريخ بلادهما القريب، سيجدان شخصيّة غير بعيدة عنهما في الزمن وما زالت آثار عملها حيّة نابضة أمامهما، شخصيّة طبعت هذا التاريخ بطابعها لأنّ مرورها على

مسرح حياة وطنها لم يكن مروراً عابراً، بل ترك بصمات عميقة ستظلّ محفورة حيث هي الى أمد طويل طويل. شخصيّة يقدّمانها لأولادهما صورة عن الفرد من الناس في اقترابه من الكمال الإنساني، وهي صورة ساطعة، ناطقة معبّرة في حدّ ذاتها، يُغني استعراض شريط حياة وعمل صاحبها عن كلّ شرح وتعليق حتى لَتغدو رمزاً، في رؤيا كلّ فتى وفتاة من لبنان، لِما ينبغي أن يكون عليه من كان ابناً لهذا الوطن اللبناني.

وسيقول الآباء والأمّهات لأولادهم في معرض سرد هذه السيرة عليهم، ان هذا الاسم الذي أضيف في العصر الحديث الى أسماء الأبطال اللبنانيين الغابرين هو الذي، استطاعت بفضل صاحبه، الأجيال اللبنانية التي جاءت بعده ان تحيا على هذه الأرض، ولولا وجوده وقيامه بما قام به لَما كانت هذه الأجيال ربّما، رأت النور إطلاقاً، أو لكانت رأته تحت شمس غير شمس لبنان. ونظرة الى البحر المترامي أمام الشواطىء اللبنانية تكفي لاستعادة ذكر المراكب التي كانت محضَّرة هناك لنقل اللبنانيين الى المخيَّمات المنصوبة لهم في المقلب الآخر من الأرض.

ولكنّها إرادة الحياة، لا بل إرادة اللبنانيين المتشبّثين بكلّ ذَرّة من تراب وطنهم، والمتمسّكين بتراثهم وتاريخهم والمؤمنين بحرّيّتهم وكرامتهم، تجسّدت كلّها، كما ذكرنا، بمقاومة بشير الجميّل وصموده البطولي، فبقي لبنان الحرّ، بكيانه واستقلاله وسيادته لجميع اللبنانيين.

كما وانتصر لبنان الوطن والشعب، انتصاراً مشهوداً بفضل ديمقراطيّة بشير الجميّل وتشبّثه بالأصول البرلمانيّة، ليكون انتخاب رئيس الجمهورية حصانة للحرية والدستور وضمانة للنهج السياسي السليم، وترسيخاً للوعي القومي والمسؤولية الوطنيّة المشتركة بين أبناء الوطن الواحد.

ملحق

الرئيس الشهيد بشير الجميّل

الرئيس الشهيد بشير الجميّل

... وفي ١٤ ايلول ١٩٨٢، وقبل أن يتحقّق حلم لبنان واللبنانيّين، سقط الأمل، واغتيل الرئيس بشير الجميّل بطل الإنقاذ والتحرير ورجل الوحدة والسيادة وحقّ تقرير المصير، دون أن يتمكّن من أدائه القسم الدستوري وتسلّمه مهمّاته في سدّة الرئاسة الأولى، فانطفأت الشعلة التي أضاءت الطريق أمام خلاص اللبنانيين من محنتهم الدامية، وخسر لبنان الرئيس الشاب الذي حمل إليه الوعد والعهد، في المحافظة على العشرة آلاف والأربعماية والاثنين والخمسين كيلومتراً مربّعاً، وفي العمل على بنائه و إنمائه وتطويره، تحقيقاً لأمانية وطموحاته.

○ كيف استشهد الرئيس بشير الجميّل؟

ــ في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الثلاثاء الواقع فيه ١٤ ايلول ١٩٨٢ كان الرئيس بشير الجميل يترأس اجتماعاً في بيت الكتائب في منطقة الأشرفية للمسؤولين الكتائبيين ويشرح لهم في محاضرة، ضرورة الانصياع الى الخطّة الأمنيّة التي كان من المفترض تنفيذها في اليوم التالي، في المناطق الشرقية من بيروت، والامتناع عن أيّ ظهور مسلّح وتسهيل مهمّة القوات الشرعية من جيش وقوى أمن داخلي بغية إعادة اللحمة والوحدة الى العاصمة.

وما ان شرع الرئيس الجميل في إلقاء كلمته في القاعة الكبرى للطبقة الأرضيّة من المبنى حيث بيت المنطقة، حتى دوّى انفجار هائل ناتج عن عبوة ناسفة قُدّرت زنتها بمائتي كيلوغرام من مادة الـ ت.ن.ت، مزوّدة بساعة توقيت، كانت موضوعة على سطح المبنى من الجهة الخلفيّة التي يؤدّي إليها مسربان لناحية الغرب، ممّا أسفر عن سقوط طبقتَي المبنى المؤلف من ثلاث طبقات على الطبقة الأرضية وانهيارها.

وعلى الفور ضُرب نطاق أمني حول منطقة الحادث بشعاع ثلاثة كيلومترات، وحضرت فرق من الجيش وقوى الأمن والقوات اللبنانية وسرايا تابعة للاطفاء والدفاع المدني، وبدأت عملية رفع الانقاض وانتشال الضحايا.

وأصدرت قيادة القوات اللبنانية بياناً يمنع بموجبه أفراد القوات اللبنانية المسلّحة من التجوّل باللباس العسكري أو بالسلاح من دون أمر مُهمّة.

وفي غضون ذلك، سرت شائعات منها أنّ الرئيس الجميل نجا وأمكن إنقاذه، مما حمل الشيخ أمين الجميل والسيدة صولانج الجميل وشقيقها السيد جوزف توتونجي والشيخ الكسندر الجميل، الذين كانوا يتابعون عمل رجال الإنقاذ والإسعاف على التوجّه الى مستشفى اوتيل ديو بعدما نُقل إليهم أنّ الرئيس الجميل في غرفة العناية الفائقة هناك.

وظلّت الأعصاب مشدودة والتوتّر والوجوم في أقصى درجاتهما في صفوف القيادات والرأي العام حتى الحادية عشرة ليلاً عندما انتُشلت جثّة الرئيس الجميل ونُقلت الى مستشفى اوتيل ديو، حيث وصل وفد من حزب الكتائب قوامه نائب رئيس الحزب الدكتور ايلي كرامة والسادة كريم بقرادوني وجوزف أبو خليل وجوزف الهاشم، وتعرّف الى الجثة وكان التشويه بادياً عليها. ووُجدت في جيب سترة الرئيس الشهيد برقية من مختار احدى البلدات اللبنانية يُهنّئه فيها بانتخابه رئيساً للجمهورية.

وخلّف حادث التفجير المجرم عدداً كبيراً من الضحايا والجرحى نقلوا الى مستشفيات العاصمة المجاورة.

○ وقد أعلن المتحدّث باسم البيت الأبيض السيد لاري سبيكس « مقتل الرئيس اللبناني المنتَخَب في حادث انفجار ». وقال ان الرئيس رونالد ريغان تبلّغ النبأ بتأثّر بالغ.

ـــ وقال مصدر دبلوماسي في واشنطن ان ذلك « يشكل ضربة مؤلمة لآمال الولايات المتحدة في تحقيق تقدّم للسلام في لبنان، على صعيدَي اتفاق سلام وتأمين انسحاب اسرائيلي سريع ». وأوضح مسؤولون أميركيون أنّ انتخاب الشيخ

بشير الجميل « قدّم أفضل فرصة لتشكيل حكومة مركزية قوية في لبنان ». وقد عقد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية الأميركية اجتماعاً طارئاً لدرس الموقف.

وعلى الأثر ترأس الشيخ بيار الجميل اجتماعاً طارئاً للمكتب السياسي الكتائبي. وقد اعتبر الحزب أنّ الرئيس الشهيد إنّما قضى شهيداً فداءً عن لبنان الواحد وعن سيادته، وعاهد بالسير على خطاه، معتبراً أنّ ما حصل يُشكّل مزيداً من الدفع الحزبي في اتجاه العطاءات وخدمة الوطن. وقد قرّر المكتب السياسي أن يتمّ الدفن في بكفيا الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الاربعاء ١٥ ايلول ١٩٨٢.

وقد نُقل المغفور له الى منزله في بكفيّا ليلاً، وبدأت الشخصيات السياسيّة والروحية والمدنيّة تتقاطر الى منزل فقيد لبنان، وعلى الوجوه وجوم وحزن وقلق، وفي مقدّمتهم رئيس الجمهورية الاستاذ الياس سركيس وعدد من الوزراء والنواب.

○ ثمّ صدر النعي الرسمي التالي :

« فخامة رئيس الجمهورية الاستاذ الياس سركيس،

« دولة رئيس مجلس النواب كامل الاسعد،

« دولة رئيس الحكومة شفيق الوزان،

« أصحاب المعالي الوزراء،

« اعضاء المجلس النيابي،

« ينعون الى الشعب اللبناني فخامة الرئيس المنتخب الشيخ بشير الجميل الذي سقط شهيداً بعد ظهر الثلاثاء ١٤ أيلول ١٩٨٢ ضحية مؤامرة اجرامية آثمة ارتكبت بحقّ لبنان وجاءت تُضيف الى مآسي الوطن فاجعة بليغة فادحة.

« وإننا إذ ندعو الشعب اللبناني الى التبصّر في بُعد المؤامرة الرامية الى النيل من وحدة الوطن واستقلاله وسيادته، نؤكّد ثقتنا بأنّ الجميع سيعملون بوحي الشعور بمسؤوليّاتهم الوطنية في هذا الظرف المصيري الخطير، انطلاقاً ممّا نادى به فخامة الرئيس الراحل الشيخ بشير الجميل فنكون أمناء على طموحاته وآماله وأمانيه. تغمّد الله فقيد البلاد بعزيز رحماته وحفظ لبنان.

وهم يدعون أصحاب الفخامة رؤساء الجمهوريّة السابقين ، وأصحاب الدولة، ورؤساء المجالس النيابيّة، والحكومات السابقين، ورؤساء البعثات الدبلوماسيّة والقنصليّة المعتمدين في لبنان، والهيئات القضائيّة والعسكريّة والاداريّة والنقابيّة والمهنيّة والاقتصاديّة والاعلاميّة، الى المشاركة في المأتم الوطني الذي سيقام في مسقط رأس فخامة الرئيس الراحل في بكفيا الرابعة من بعد ظهر اليوم الأربعاء ١٥ أيلول ١٩٨٢ ».

○ وأصدر رئيس الحكومة السيد شفيق الوزان قراراً باعلان الحداد الرسمي، وتنكيس الاعلام لمدة سبعة أيام، ووصف الجريمة بأنها « كارثة رهيبة » وأدلى بالتصريح التالي :

« بألم شديد تلقّيت واللبنانيين هذا النبأ المفجع الذي هزّ جميع المشاعر وأثار الحزن والأسى في نفوسنا جميعاً. إنّ هذا الحادث المؤلم المجرم الذي أودى بحياة الرئيس المنتَخَب هو حلقة في مسلسل التآمر على لبنان الذي عملنا ونعمل لإنهائه. و إنّ الايادي الشرّيرة تأبى إلّا أن تُعطّل مسيرة السلام والعافية التي بدأ اللبنانيون يُحققونها.

إنّ الحزن يعمّ الجميع، عند المسيحيّين وعند المسلمين، لا فرق فهذه أصالة عند اللبنانيين وهي أصالة الانسانيّة الحقيقيّة. و إنني أتقدّم بالتعزية الصادقة باسم الحكومة اللبنانية وباسمي شخصياً من عائلة الفقيد الكبير مشاركاً اللبنانيين كل مشاعر الحزن والأسى ».

○ ونعته الصحافة اللبنانية بكلمات مؤثّرة تفيض بالحزن والأسى، كما نعته الإذاعات المحليّة والعالميّة بعبارات تعكس حجم الخسارة التي مُني بها لبنان، بغياب البطل المجاهد الذي قضى شهيد أمّته وفداء عنها، وانهالت برقيات التعزية بالفقيد الكبير، من كلّ حدب وصوب تستنكر الجريمة ــ المأساة، وتعاهد روح بشير الجميّل على متابعة طريق الخلاص للوصول الى لبنان الذي أراده حرّاً سيّداً مستقلّاً.

لبنان في وداع « الأمل »

ويوم الاربعاء في ١٥ ايلول ١٩٨٢ التقى لبنان في بكفيّا حضوراً جامعاً لكلّ مناطقه وطوائفه وأحزابه في وداع رمز الصمود والشجاعة والأمل والطموح، محقّقاً في لحظات الحزن والأسى، ما كان يأمل الرئيس الراحل بشير الجميّل في تحقيقه إبّان فترة ولايته، إنما عبر تلاقي اللبنانيين في وطن يغدو رمزاً للأمن والاستقرار والمستقبل الزاهر « فكفى لبنان ما عاناه » كما كان يُردّد ولا سيّما بعد انتخابه رئيساً للجمهورية في ٢٣ آب الماضي.

وليس من السهل ولا من باب الأمانة الحقّ، وصف مدى الصدمة التي اجتاحت الوطن من أقصاه الى أقصاه، فكلّ لبناني قرأ في عيون الأقربين الكثير من الوجوم والكثير الكثير عن المصير، مصير الرسالة التي سقط الرئيس القائد فداء لها، وهو الذي كتب اللبنانيّون في أعماق قلوبهم وعداً أكيداً بان على يديه ستكون خاتمة الأحزان. ألم يقل بُعيد انتخابه : « لا إرهاب في عهدي ؟ »

كذلك ليس من الممكن، بعد الفاجعة، سوى القول بأنّ يد الإجرام لا تزال تُمعن تقطيعاً في أوصال الوطن، كلّما لاح أمل في عودته حرّاً سيّداً مستقلاً، وبأن ارادة البقاء تظلّ العزاء الوحيد للبنان وبنيه، تهون حيالها المصائب والتضحيات مهما غلت.

بكفيّا ولبنان عاهدا الرئيس الشهيد على الوفاء لمسيرته. تلك هي الصلاة التي ارتفعت من صدور المشيّعين او الذين شاركوا في الجنازة عبر وسائل الاعلام، فبالايمان والرجاء حُفظت وديعة الوطن، وعلى وقع الشهادة المنتصرة قيامته..

○ وفي الرابعة بعد الظهر أُقيم للفقيد الكبير في ساحة بكفيّا مأتم حافل حضره رئيس الجمهورية الاستاذ الياس سركيس ورئيس الحكومة الاستاذ شفيق الوزان

ونائب رئيس مجلس النواب منير ابو فاضل وعدد من الشخصيات الرسمية والسياسيّة والدبلوماسيّة والروحيّة والاجتماعيّة وجمهور شعبيّ غفير من مختلف المناطق اللبنانية.

ـــ وبدأت مراسم الصلاة في خشوع، يترأسها البطريرك خريش. وتلا النائب البطريركي العام المطران نصر الله صفير الرقيم البطريركي التالي نصّه :

« باسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد، امين.

(...) » وهوت من السماء نجمة كبيرة » (سفر الرؤيا).

« الأحزان في حجم الآمال، والاستنكار في مستوى بشاعة الجريمة، وما كان أكبر الآمال المعلّقة على فخامة الرئيس المنتَخَب الشيخ بشير الجميل عندما سطع نجماً كبيراً في سماء لبنان، وهي آمال زاهية مجنَّحة، كانت تملأُ العيون التي تترقّب إطلالته والقلوب التي تشتاق الى رؤيته. ومَن لم يَرَ كيف كانت الأعناق تشرئبّ إليه والأيدي تمتدّ لمصافحته والهتافات تنطلق من الأفواه لتُعرب عن الأماني التي كانت تُواكبه ؟

وما أشدَّ الاحزان على غيابه بعدما هوى من عليائه شهيد طموحاته الكبيرة الى بناء وطن منيع الجانب خفّاق الراية بين الرايات في سماء السيادة والكرامة والاستقلال.

وما أبشع الجريمة التي أودت بحياته وحياة رفاقه وهو في مطلع الثلاثينات من عمره. فأودت بآمال شعب عملت يد التفرقة في صفوف أبنائه. فراح الشيخ بشير يعمل هو ومن معه ويُناضل ويكافح طوال سنوات المحنة الثماني ليعيد الى الارض وحدتها والى الوطن سيادته والى الشعب حرّيّته وكرامته والى الدولة هيبتها والى المؤسّسات فعاليتها.

كان صاحب أحلام على ما قاله عن نفسه، وصاحب أحلام كبيرة لبناء وطن يملك حقّ تقرير المصير باشتراك كلّ ابنائه ويسمع صوته عاليا في المحافل الدولية وينثر على الدنيا ما تراكم على أرضه من غنى وحضارة عمرها ستة آلاف سنة. فانفتح على الناس، أقربين وأبعدين، في الوطن وفي خارجه. فئات وأحزاباً

ودولا، ولقي لديهم ما نشده من دعم وتقدير.

كان صاحب أحلام، فلقي ما يلقاه في كل زمان ومكان اصحاب الاحلام أمثاله الذين يستثيرون الحسد والحفائظ.

سقط في ذكرى ارتفاع الصليب المقدّس. وكان شديد الإيمان بمن علّق عليه ليهتدي كلّ الناس. سقط فدى لبنان، لكنّ احلامه الجميلة باقية ولن تتبخّر لأنها أحلام شعب يُريد الحياة الكريمة وينشد الوحدة والسيادة والسلام. وسيقيّض الله لأحلامه من يُجسّدها وقائع ملموسة وحقائق راهنة تبقى على الدهر، ولن تقوى يد الإجرام مهما اشتدّت قبضتها على تحطيمها و إبادتها.

وأنا اتقدّم باسم صاحب الغبطة مار انطونيوس بطرس خريش الكلّيّ الطوبى الذي شرّفنا بتكليفه إيانا إلقاء هذه الكلمة باسمه، والذي يبكي الفقيد الكبير ويبكي معه لبنان ان لم يقتنع كلّ ابنائه على رغم ما أصابهم من ويلات بأنّ العنف لن يحلّ فيه أيّ مشكلة لا بل ما كان إلّا ليزيد المشاكل تعقيداً.

ونتقدّم باسم أصحاب الغبطة والسيادة والآباء الاجلاء وهذه الحشود الكريمة، من فخامة رئيس الجمهورية السيد الياس سركيس، وأركان الدولة وقرينة الفقيد الكبير وطفليه، ووالده معالي الشيخ بيار وقرينته وابنه الشيخ أمين وبناته وآل الجميل الكرام، وحزب الكتائب اللبنانية وكل اللبنانيين بالتعزية الخالصة، سائلين الله أن يُسكن الفقيد في جوار الخالدين من الشهداء الذين يرقدون في تربة لبنان، وان يتولّى هذا الوطن والمسؤولين عن مقدّراته وكلّ ابنائه بحبّه وبركاته آمين ».

كلمة الرئيس سركيس

ثم ألقى الرئيس سركيس وهو يغصّ بالدمع تأثّرا وحزناً الكلمة التالية :

« فخامة الرئيس الشهيد.

لقد رسمت الطريق وهويت قبل المسير ، فبدلاً من أن تتسلّم الأمانة والرسالة تركت بين أيدي اللبنانيين أمانة وعلى كواهلهم رسالة، إذ إنك لم تكن قائداً

ورئيساً فحسب، بل كنت نهجاً وتطلّعاً وتوجّهاً واضحاً عاهدك اللبنانيون على السير فيه. هذه هي الأمانة التي تركت، وهم على العهد باقون.

أُوتيت نسباً الى عائلة عريقة كريمة سلَخَت سنين طوال من عمرها وحياتها في خدمة لبنان. وأُوتيت ذكاء فيه باع متوقّد و إيمان عامر بالله والوطن. وقلباً كبيراً فيه جذوة من نور الأمل : أمل الإنقاذ وأمل خلاص لبنان ممّا ألمّ به من ويلات ومحن. وأمل شباب لبنان الشامخ نحو أعالي بلاده.

قدّر الله ان تكون على رغم حداثة سنّك من كبار رجالات لبنان واشدّهم بأساً في الذود عن أعزّ ما يملكه اللبنانيون : الحرّيّة والكرامة والسيادة، واندفعت بكل ما أُعطيت وما ورثت وما أنجزت في سبيل وطنك، فأصبح اسمك رمزاً وشعلة. أُعطيتَ بلا حساب ولا تقتير الى أن وَهبتَ حياتك ونفسك.

اختارك اللبنانيّون رئيساً، فكنت بشير عهد جديد يجمع شمل الوطن ويُوحّد كلمة اللبنانيين ويحفظ استقلالهم وسيادتهم، فمددت يد التعاون المخلص لا يغمض لك طرف ولا يهدأ لك بال الى ان سقطتَ شهيد المُثُل التي عملتَ من أجلها وسعيت الى تحقيقها.

كنت توّاقاً الى العلى، والمراتب عندك إنّما كانت إعلاء شأن لبنان حيث ترى الى ذلك سبيلاً، فاذا بيد التآمر والغدر تُرديك شهيداً وتطعننا جميعنا في الصميم، تطعن لبنان الوطن وشعب لبنان في مرحلة عصيبة خطيرة وبلدك ونحن في أمسّ حاجة إليك والى حزمك في الرأي والتدبير.

يا فقيد البلاد لئن غاب عنّا وجهك الباسم فأنت حيث أنت في قلوبنا، ولن تنزعك من تاريخ وطنك أيّ ذراع مهما بلغ حجم الفاجعة التي أنزلتها بلبنان.

فباسم العطاء، ومن أجل لبنان الذي تَمثّل فيك، أدعو اللبنانيين إلى ان يتكاتفوا ويتعاضدوا ويلتفّوا بعضهم حول بعض لتأكيد وحدة لبنان وحمل قضيته عالياً فوق كل القضايا، ولإعادته حرّاً سيّداً مستقلاً، يعيش فيه كلّ اللبنانيين في كرامة من دون تطلّع الى الماضي، بل تداركاً للمستقبل.

أيّها الشهيد الاول، يا مَن وُلدت من اجل لبنان وعشتَ من أجله وناضلت

ووهبت الروح في سبيله، نَمْ قرير العين في ظلّ القِمم التي أحببت، وعلى منحنى الوهاد حيث نشأت وترعرعت. فلتدم ذكراك خلود ارز لبنان. عاش لبنان ».

ــ ووضع الرئيس سركيس على ضريح الفقيد الوشاح الأكبر من رتبة الاستحقاق اللبناني. ودمع وهو يقول: « إنني أضع على ضريح الفقيد الكبير الوشاح الأكبر من رتبة الاستحقاق اللبناني، فهو يعود إليه ».

كلمة أمين الجميّل

وقال الشيخ أمين الجميّل: « باسم حزب الكتائب، وباسم آل الجميّل وآل توتونجي أشكر فخامة رئيس الجمهورية الاستاذ الياس سركيس الذي شرّفنا بحضور هذا المأتم المؤلم على قلوب العائلة والحزب واللبنانيين عموماً. كما أشكر دولة رئيس مجلس الوزراء الاستاذ شفيق الوزان والاستاذ منير ابو فاضل ممثلاً دولة الرئيس كامل الاسعد. وأشكر أصحاب الغبطة والسيادة واصحاب الدولة السابقين. وكلّ رؤساء الجمهوريات السابقين، كما أشكر كلّ الهيئات الدبلوماسية والسياسيّة والنقابيّة والمهنيّة التي أبت إلّا أن تُشارك العائلة والحزب في هذا الألم الذي ألمّ بها.

إنّ الوسام الذي قلّده فخامة الرئيس لبشير، هو في الواقع وسام أيضا على صدر فخامة الرئيس سركيس بالذات، لأنّه على رغم كل المعاناة وعلى رغم كل الصعاب تمكّن من ان ينقل الأمانة ويُسلّم المشعل، مشعل الحرية والشرعية في سبيل استمرار لبنان وديمومته. وان هذا الاغتيال وتلك المؤامرة التي أودت بحياة بشير كانتا ضد لبنان ووحدة لبنان والمحبة التي نريدها في قلوب كل شعب لبنان.

إنّما هذا هو تحدّي بشير الجميل لأنه حتى في مماته، وفي استشهاده، كانت مناسبة لتأكيد وحدة لبنان ولتأكيد المحبّة على صعيد كل شعب لبنان. فبعد ثماني سنوات من المحنة ومن الصّعاب ومن القتل والدمار والخراب على ارض لبنان، في هذه اللحظة بالذات، اجتمع في بكفيا بالذات وحول نعش بشير الجميل كل طوائف لبنان وكل مناطق لبنان، السني والماروني، الشيعي والارثوذكسي، والدرزي والروم الكاثوليك، ابن الجنوب وابن الشمال، ابن الجبل وابن البقاع. اجتمعوا في بكفيا بالذات لتأكيد أنّ دم بشير الجَميل لم يذهب هدراً إنّما روّى تلك الأرض

الطيّبة في سبيل وحدة لبنان وكرامة شعب لبنان.

ايها الاصدقاء، مسيرة بشير الجميل، وهي من مدرسة بيار الجميل ومن مدرسة حزب الكتائب، تلك المسيرة مستمرّة مهما عصفت الأهواء ومهما كبرت المؤامرات. انها مسيرة الحق، مسيرة المحبة، مسيرة لبنان الذي نريد، لبنان الارز، لبنان الإلفة، لبنان الوفاق، لبنان وحدة الارض والشعب والارادة.

وانتم يا رفاق بشير الجميل في « حزب الكتائب » او في « القوات اللبنانية »، عهدنا لكم أنّ بشير الجميل لم يزل حيّاً في نهجه، ولم يزل حيّاً في تصميمه لإعادة الأصالة الحقيقيّة، الأصالة اللبنانيّة الى كل حبّة تراب من هذه الأرض الطيّبة، الارض المقدّسة، ارض لبنان. فعهدنا لكم يا أيّها الأبطال، يا أبطال « القوّات اللبنانية »، الذي استشهد من استشهد منكم في سبيل لبنان، أنّ كل مؤامرة ستتحطّم، فهم تمكّنوا من أن ينالوا من جسد بشير الجميل، إنّما لم يتمكّنوا ولن يتمكّنوا من الانتصار على روح بشير الجميل وعلى إرادة بشير الجميل على التحرير والتوحيد.

رفاقي، أعزّائي، شعب لبنان، شعب كل لبنان، من جنوبه الى شماله، من جبله الى شاطئه، هذا هو العهد واننا اليوم امام هذا الضريح المقدّس، نُعاهد لبنان، نُعاهد الضمير اللبناني، نُعاهد الأصالة اللبنانيّة، نُعاهد الإرادة اللبنانيّة بأنّ مسيرة بشير الجميل مستمرّة حتى تعود الأصالة، كلّ الأصالة الى كل الأرض لأنّ الأصالة لا تُجتزأ، إنها تكون كاملة او لا تكون.

شكراً لكم جميعاً. شكراً لفخامة الرئيس الصديق والأخ الكبير لبشير، والأخ الكبير لكلّ اللبنانيين المخلصين. شكراً لأركان الدولة، شكراً لكلّ أصدقاء لبنان الذين أبوا إلا أن يُشاركوا في هذا المأتم بالذات ليس لتكريم شخص فحسب، وإنني اذ انظر الى هذه الوجوه الكريمة والى أصحاب الدولة الذين أبوا إلّا أن يُشاركونا في هذا المأتم، الأليم، أراهم وكلّهم أمل بأنّ لبنان سيعود لبنان كلّ اللبنانيين ولبنان اللبنانيين من دون سواهم. هذا هو عهد بشير الجميل وَمَا وَمَن يُمثّل. وإنّ المسيرة مستمرّة حتى تتحقّق الأهداف التي من أجلها استشهد بشير الجميل، لا بل من اجلها اليوم تحيا روح بشير الجميل ».

ــ ووسط ذهول وألم عميقين ووري شهيد الشهداء في مثواه الأخير بعدما أطلقت المدافع ٢١ طلقة تحيّة الوداع للرئيس القائد، للرئيس الشاب، الذي جسّد آمال اللبنانيّين، وتركهم وهم في أشدّ الحاجة الى وجوده.

○ وعكست حادثة اغتيال الرئيس الشهيد الشيخ بشير الجميل موجة حزن وأسى وقلق عارمة، تميّزت بالإقفال التام في مختلف مرافق الحياة العامة في بيروت والمناطق اللبنانية. وقد ارتفعت على الطرقات الرئيسية صور الرئيس الشهيد مكلّلة بالسواد الى جانب صوره التي رفعت فور انتخابه رئيسا للجمهورية.

ــ ومن جهته نقل تلفزيون لبنان وقائع التعزية بالرئيس الشهيد كما بثّ صوراً صوتيّة لعدد من فاعليات البلاد أدانت في كلماتها الجريمة ــ الكارثة واعتبرتها حلقة في سلسلة المؤامرة الكبرى على لبنان الوطن والشعب والمصير.

وكان التلفزيون يبثّ موسيقى كلاسيكيّة بين فترة واخرى، ويقطعها بصورة للرئيس الراحل تزيّنها ابتسامته العريضة التي طالما حملت الى اللبنانيين الأمل وعزّزت فيهم التطلّعات والأماني بغد مشرق عارم بالحرية والاستقلال والسيادة الوطنية.

ــ وبدورها أوقفت اذاعة « صوت لبنان العربي » برامجها مستعيضة بموسيقى كلاسيكيّة.

ــ كذلك نعت اذاعة « صوت لبنان » الرئيس المنتخب الشيخ بشير الجميل بكلمة وطنية أعلنها بصوته مدير عام « صوت لبنان » الاستاذ جوزف الهاشم، كما نعته اذاعة لبنان واذاعة « لبنان الحرّ » وأوقفت البرامج العادية واستعاضت عنها باذاعة موسيقى كلاسيكية.

ــ وهنا نصّ نعي مدير عام اذاعة « صوت لبنان » : كبير من عظماء لبنان في تاريخه الحديث وواحد فرد عُلّقت عليه الآمال الكبار، ورئيس شاب يُمثّل العنفوان اللبناني والتطلّع الى التحرّر وإحياء الوطن وتثبيت الاستقلال وإنهاء الاحتلال، أباحت المؤامرة الخفيّة دمه، فأباحت مجد لبنان مرة ثانية وأصابت قلبه لينزف وقتاً أطول ليعود فيبحث عن الخلاص، وقد غادر رجل الخلاص وبشير الإنقاذ.

هذا هو الشهيد العظيم الذي سقط في غمرة مؤامرة مجرمة تترك بصماتها السود على كل جدار في لبنان وفي كل حيّ وشارع وتحفر أبلغ الألم في كل قلب وصدر.

الشهيد العظيم الرئيس الشيخ بشير الجميل كان أمل الخلاص وذهب كبش المحرقة وكبش الفداء عن لبنان. ودمه الطاهر سيجبل كلّ حبّة من التراب اللبناني. يقول لبنان دائما كما قال هو : لا للقهر، لا للاحتلال... نعم للحرية والسيادة والاستقلال.

هذا هو الرئيس الراحل الشيخ بشير الجميل الذي تعجز الكلمات عن وفائه حقّه مهما سمت ورقّت ».

ـــ وقال نعي اذاعة « لبنان الحر » : لبنان اليوم حزن وقلق. حزن على الرئيس وقلق على المصير والمستفيد من الفاجعة التي نزلت بلبنان واللبنانيين هو الغريب. سقط بشير الجميل من اجل لبنان الواحد، الحر، السيد، المستقل، وسيبقى اللبنانيون ولبنان أوفياء لرسالته الخالدة.

ردود الفعل

ردود الفعل المحلّيّة والعالميّة على جريمة الاغتيال توزّعت إدانةً واستنكاراً. ففي حين شجبت الشخصيات السياسية والنيابية، والقياديّة والدينيّة والنقابيّة حادث الاغتيال الذي تعرّض له الرئيس المنتَخب الرّاحل بشير الجميّل، واصفة إيّاه بالجريمة البشعة وبالمؤامرة المستمرّة على لبنان وسيادته واستقلاله ومصيره أُكدّ الجميع على ضرورة متابعة المسيرة التي مشاها بشير الجميل من اجل إنقاذ لبنان و إعادة السيادة والكرامة والحريّة الى أرضه وشعبه.

ـــ ومن جهة اخرى قوبل اغتيال الرئيس بشير الجميّل بموجة استنكار وأسف في مختلف عواصم العالم، وأعربت الولايات المتحدة ودول أخرى عن القلق من آثار الاغتيال على آمال السلام في الشرق الاوسط.

○ واعرب الرئيس ريغان في بيان شديد اللهجة عن أسفه لحادث « الاغتيال الجبان ». وندّد بمرتكبي « هذه الجريمة البشعة ضدّ لبنان وضدّ قضيّة السلام في الشرق الاوسط ».

○ وفي باريس، سجّل الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، احترامه لذكرى الرئيس بشير الجميل، وقال في برقية الى الرئيس الياس سركيس اذاعها قصر الإليزيه : إنني أحيّي ذكراه وأؤكّد من جديد صداقة فرنسا المخلصة التي تشعر بالقرب الشديد من لبنان في هذه الساعة الدراميّة.

ووصف الرئيس ميتران حادث التفجير على أنه « عمل اجرامي ».

○ وقال السيد كلود شيسون وزير الخارجية الفرنسي إنه صُدم بصورة عميقة بمقتل الجميل.

ــ وأعرب الفاتيكان عن حزنه وقلقه ازاء « الموت غير الانساني والفظيع » للرئيس الشيخ بشير الجميل. وقال متحدّث باسم الفاتيكان : لقد اثار النبأ حزناً وذعراً عميقين. لقد كان بشير الجميل رئيساً لبلد يشعر الحبر الأعظم بانه قريب منه للغاية.

ــ وفي بروكسل، اعرب السيد غاستون تورن رئيس اللجنة الاوروبية للسوق المشتركة عن سخطه وحزنه لمصرع الرئيس بشير الجميل، وقال في رسالة الى الحكومة اللبنانية ان اللجنة الاوروبية تشارك شعب لبنان حداده.

○ وفي لاهاي أعربت الحكومة الهولندية عن انزعاجها البالغ من جرّاء الانفجار الذي قتل الرئيس الجميل. وقالت إن وفاته تُعدّ ضربة جديدة للشعب اللبناني.

وقال متحدّث باسم وزارة الخارجية إنّ انتخاب السيد الجميل رئيساً للبنان، كان قد أنعش الآمال في حكومة منظّمة محبّة للسلام في لبنان.

○ وفي دمشق ابرزت الصحف السورية نبأ مصرع الرئيس المنتخب ونشرته في صدر صفحاتها الاولى وتحت عناوين رئيسية دون التعليق بكلمة واحدة.

ــ وأوردت صحيفة « البعث » فقرات مطوّلة ممّا قاله الكاتب الاسرائيلي

يوري إفنيري عن الجميل ووصفه له بأنه « لم يكن يوماً رجل سياسة بل شخصية تسعى دائماً الى حلّ المشاكل عن طريق القوة ».

○ وفي القاهرة، أجرى المسؤولون في الحكومة المصرية مشاورات لتقويم الآثار المحتملة لمقتل الرئيس اللبناني المنتخب.

ـــ وقال بيان صدر عن وزارة الخارجية إنّه على حين تلقّت مصر بمزيد من القلق والاسف نبأ الاغتيال، فإنها تناشد كافة الاطراف اللبنانية ممارسة أقصى درجات ضبط النفس.

○ وفي لندن أعربت وزارة الخارجية البريطانية عن صدمتها لاغتيال الرئيس الجميل وذلك في بيان عزاء لأسرته وأسر الضحايا الآخرين.

وأضافت وزارة الخارجيّة البريطانية إننا نأسف لتجدّد العنف ولا سيّما لاغتيال رجل تعهّد منذ انتخابه بالسعي الى تحقيق السلام بين جميع الطوائف في لبنان.

○ وفي تل أبيب، صرّح شيمون بيريز زعيم المعارضة العمّالية بعدما أعرب عن أسفه لاغتيال الرئيس الجميّل بأن اسرائيل لا يجب أن تتدخّل في الشؤون الداخليّة اللبنانية إثر اغتيال الرئيس بشير الجميل.

ـــ وقال وزير العلوم الاسرائيلي يوفال نيمان ان الاغتيال دليل على أنّ اسرائيل لا بدّ وان تحتفظ بوجود عسكري في لبنان.

ـــ وقال ان هذا الحادث المأساوي يُثبت بصورة أكثر كم هو حيوي للقوات الاسرائيلية ان تحتفظ بمنطقة عازلة في جنوب لبنان.

○ وبعث بيار موروا رئيس وزراء فرنسا ببرقية عزاء الى الرئيس شفيق الوزان « حيّا فيها باحترام ذكرى الرجل الذي تمّ اختياره لتولّي المهمّة العليا لرئاسة الدولة ».

وذكر موروا في البرقية « إنني أعرب لكم وللشعب اللبناني باسمي الشخصي وباسم الحكومة الفرنسية، التي أدانت بحزم على الدوام الالتجاء الى العنف، والتي وقفت دائماً الى جانب لبنان عن تعاطفي العميق وعزائي الخالص ».

○ وأبدى رئيس الحزب الديمقراطي المسيحي في ألمانيا عن تأثّره العميق لوفاة بشير الجميل الرهيبة قبل أيام من تسلّمه مهامّ رئاسة الجمهورية اللبنانية. وقال : « لقد أملنا جميعاً في أن يكون للبنان فرحة حقيقيّة بانتخاب بشير الجميل لاستعادة سيادته وأمنه الداخلي، لكن هذا الأمل سقط فجأة ».

وأخيراً، يضيق المجال هنا في تسجيل كلّ ما قيل عن الرئيس الراحل الشيخ بشير الجميل الذي كان أمل لبنان واللبنانيين ، وعن محاولة القضاء على القضيّة اللبنانيّة التي نذر نفسه لأجلها، ولكن تبقى الكلمة للتاريخ كما أسلفنا، وتبقى سيرة بشير الجميل قبساً لكلّ مؤمن بوطنه وحقّه وكرامته.